سلسلة مغامرات
(الأوركا)

المغامرة الأولى

النداهة

أحمد الحفناوي

المغامرة الاولى

من سلسلة

الأوركا

أحمد محمد الحفناوي

النداهة

رواية

اسم الكتاب : النداهة
التصنيف : رواية
المؤلف : أحمد محمد الحفناوي
الطبعة : الأولى
مصمم الغلاف :
التصحيح اللغوي : مؤسسة العماد
الإخراج الفني :
رقم الإيداع : 27619 / 2021
الترقيم الدولي : 978-977-6937-18-5

جميع الحقوق محفوظة ©
أي اقتباس، أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء وحقوق الملكية الفكرية والمادة الواردة بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

إهداء

إلى كل من حطَّمني يومًا، وقال: إنني لا أستطيع.

إلى والدي الحبيب -رحمه الله- وحكاياته المذهلة التي لطالما حاولت أن أحكي مثلها.

إلى أمي.. حبيبتي وسر وجودي وروح فؤادي.

إلى زوجتي المستقبلية ورفيقة العمر.

إلى روح الدكتور أحمد خالد توفيق؛ فهو صاحب الفضل بعد الله -سبحانه وتعالى- في رغبتي الشديدة في الكتابة وعشقها؛ وذلك من خلال كتاباته المذهلة.

إلى نفسي؛ لأن لا أحد يعرف كَمْ عانيت في غربتي!

إلى كل من يقرأ كتابي هذا.. أهديكم هذا العمل المتواضع، أتمنى من الله أن ينال إعجابكم.

أحمد محمد الحفناوي

الاسم: أحمد رضوان، ابن رضوان الشريف.

العمر: خمسة وستون عامًا.

المؤهل الدراسي: حاصل على دكتوراة في علم الإنثروبولوجيا.

ابن مركز قطور، التابع لمدينة طنطا، محافظة الغربية، بعد أن ارتدت بعض الجامعات في مصر وخارجها، وبعد سنين عدت لمصر، تعينت في جامعة القاهرة لكفائتي، بعد سنين انتقلت إلى جامعة طنطا، تزوجت من زوجتي الأولى.. حبيبتي رقية، وبعض الزيجات الأخرى، أثناء حياتي مارست أنواعًا عديدةً من الرياضة، ساعدتني الرياضة كثيرًا في الوصول إلى هذا السن، وما زلت أتمتع ببعض الطاقة، والحمد لله لم يصبني الزهايمر، ولا أي من أمراض الشيخوخة، كنت جالسًا مع أبنائي وأحفادي؛ أقص عليهم بعض القصص من حياتي، التي أتذكرها،

وأحفادي يحبون هذه القصص، وهم من أقنعوني أن أكتب هذا من قبل أن أقضي نحبي، ها أنا أكتب هذه السطور وأنا جالس في البيت، أثناء الحجر الصحي للفيروس اللعين الذي أصاب العالم فيروس كورونا... الآن أشعر بالخطر يقترب مني، وأشعر أيضًا أني في الوقت الضائع من حياتي وأنا جاهز لذلك بإذن الله تعالى، حياتي لم تكن سيئة بل كانت مليئةً بالمغامرات، والشقاوة، والحب، والرومانسية، والمرح، والحرية، كنت أحب بلدي، وتراث الفلاحين، والأرياف، حتى تلاشى ذلك في هذه الأيام كما تلاشت الطّيبة من الناس؛ لذلك قررت أن ابدأ أولى حكاياتي بالرعب الذي صار أسطورة حقًّا.

في الأرياف المصرية أساطير لطالما أثارت رعبنا، كما أثارت رعب من كانوا قبلنا، أما اليوم سأحكي لكم حكايتي مع الرعب، الذي ساد الأرياف المصرية سنين طويلة من رعب (النداهة)، سأحاول ألَّا أثقل عليكم من جرعات الرعب، التي ذقتها أنا؛ لأن لا شيء يُطلق الرغبة الكامنة في الرعب إلا القراءة والخيال، كن شجاعًا؛ سأقرأ لك هذه السطور ليلًا، إن الظلام يثير الرعب الكامن بداخلنا، والخوف من الرعب أسوأ من الرعب نفسه، وأنا أعلم هذا جيدًا؛ لأنني عانيت منهما، ولهذا أقول لكم:

"لا تدخلوا الحقول ليلًا، لقد حذرتكم"

بلدتي الجميلة ذات المناظر الخلابة، ومناظر الأرياف الطبيعية الرائعة، حيث ذكريات طفولتي، ومراهقتي، وشبابي، حيث البيوت الطينية، والزلعة، والتُرع التي تمر بالبلدة إلى القرى المجاورة، والقلل الفخار، والفرن البلدي، فرنٌ من الطين، كان وقوده روث الماشية والحطب، والعشش الطينية المليئة من خيرات الله؛ فراخ، وبط، وإوز، والأبراج الطينية للحمام، والأماكن المخصصة للمواشي، و(زغلول) الحمار القوي، وكلبي الودود إلي، الشرس لغيري، كنت أطلق عليه (قيصر)، كان هديةً من أحد أصدقائي في الجامعة، رَبَّيته، وكان لدى أخي (أدهم) حصانٌ، أطلقت عليه (بحر) لذكائه وقوته، أخي (أدهم)، هو الكبير، متزوج، ويعيش في بيتٍ، في الناحية الأخرى من البلدة، هو وزوجته (عايدة) وأولاده، يفصل بيننا وبينه الترعة القديمة، وهي أقدم ترعة في

البلدة وأطولها؛ لأنها تمدُّ جميع الأراضي بالمياه، وألعاب الأطفال البُدائية، التي كانوا يلعبونها وهم حفاة الأقدام، كنت حقًّا قد أشتاق إلى بلدي، وها أنا قد عدت، بعدما حصلت على الدكتوراة، وجاءني طلبُ تعيينٍ استثنائيٍّ في جامعة القاهرة؛ لتفوقي في الحصول على الدكتوراة، كنا في الفصل المُحبَّب إلى نفسي، فصل الشتاء، وليالي الشتاء الباردة، في مثل هذا الشتاء، كنت أحب الجلوس دائمًا وأنا صغير مع والدي بجوار النار، لطالما أحببتها، في العصر نجمع الحطب الناشف، ونحطمها، ونضعها في مَنْقَدٍ، أو مَوْقِد، والدي تُوفِّيَ وأنا في الثانوية، لم يكن غير أمي وأخي أدهم الكبير، وأنا بعده، وأختي راضية، وأختي ليلى الصغرى، وكانت (أم سيد) هي وزوجها (الحاج علي) يأتون ويجلسون معنا، الحاج علي رجل عجوز، لم ينجب، ودائمًا كنت أحب حكاويه، في اليوم الذي عدت فيه جاء ليلًا هو وزوجته، وجلسا معنا، وبعد حديثٍ طويلٍ حكى لي كعادته؛ عن الشباب في بلدي، وفي القري المجاورة، التي تقتلهم العفريتة.. هل تعرفها؟!

قلت: له: النداهة.

قال: الله ينور عليك... وأخذ يتكلم وصوته يتلاشى؛ لأنني كنت أسمع هذا الكلام كثيرًا، منذ طفولتي، وأنا أسمع عن عفريتة الغيطان، وبعض الناس يطلقون عليها عفريتة الترعة، ولكنها عُرِفَت بالنداهة؛ لأنها تُنادى على ضحيتها، وأنا على يقينٍ بوجود الأشباح، والجن، والعفاريت،

حتى ولو تعارض هذا مع العلم؛ لأنني أؤمن أن العالم أكبر وأعمق ممَّا نعرفه، ونراه.

عدت من ذهني على صوت عمي (علي) الرتيب، وإضاءة المنقد المشتعل لتدفئة البيت، وصوت طقطقة وتآكل الحطب في النار، قال: عارف يا أستاذ أحمد بقالنا فترة كبيرة عايشين في كابوس في البلد دي.

- ليه يا عم (علي)؟!

- كل فترة يلاقوا جثة شاب في الترعة مقتول.

- يا ساتر يارب، من إيه دا؟!

- محدش يعرف يا بني! ناس بتقول: النداهة، وفي شوية شباب زيك كده مش مصدقين إن فيه حاجة أصلًا اسمها (نداهة).

- وبيختفي إزاي يعني؟!

- الناس بتقول: إنه ذهب ليسقي أرضه ليلًا، فلم يعُدْ، وفي اليوم التالي بحثوا عنه فلم يعثروا له على أي أثرٍ في البلدة كلِّها، وكأنه تبخَّر في الهواء، وفي اليوم التالي وجدوه في الترعة القديمة، وجهه شاحب، وعليه علاماتُ رعبٍ واضحةٍ، بملابسه الرثَّة، وهناك علامات مخالب على رقبته، وبعض القشِّ ملفوف على رقبته، وجده الفلاحون وهم ذاهبون إلى أراضيهم مُبكرًا.

قلت: يا ساتر يا رب، ربنا يسترها يا عم (علي).

ثم حكى لي عن أحوال الناس المُتغيرة، ويضع يده فوق النار للتدفئة، وانتهت هذه الليلة، وجلست أفكر.. كان (بسيوني) صديقي، لا يؤمن بهذا الكلام الفارغ، على حدِّ قوله، فهو يرى نفسه المثقف الوحيد في هذه البلدة، يعمل في مهنة المحاماة، ويظن أنها جريمة قتل ذكية، لا أكثر ولا أقل، وأنه لا وجود للنداهة، إلا في عقول الجهلة، ولكني لم أشغل بالي بكل هذا. وفي اليوم التالي استيقظت في الصباح، كنت أتمرن (الكونغ فو)، وبرعت فيه، قد تعلمته أثناء دراستي للحصول على الدكتوراة بالخارج، على أيدي كهنةٍ من معبد (شاولين)، وبرعت في هذه الرياضة، وتمرنت بعض الرياضات الأخرى، مثل: (الجوجيتسو) و(الأيكيدو) و(التايكوندوا)، ووصلت قدراتي القتالية إلى مستوًى لا بأس به، حتى كان بعضهم يقولون: لقد أصبحت مقاتلًا لا يُشقُّ له غبار. كنت أتمرن بجوار البيت، وكان كل من يمر؛ ينظر إلى ما أفعله، كنت أقوم ببعض تمارين الإحماء، والحركات الهوائية التي تشق الهواء، ولكنها كانت غريبة على بعض الناس؛ ينظرون إلى وهم يضحكون، وكأنني مجنون، حتى كانت أمي تقول لي: يا أحمد يا بني، الناس كلها بتتفرج عليك، حتى العيال الصغيرة، اتمرن جوا الدار، ربنا يحفظك يا حبيبي من عين الناس.

كانت تخاف عليَّ من الحسد، وكانت بعض بنات البلد الجميلات، بجمالهم الفلاحي النادر ممن يمرون، ينظرن إليَّ، ويهمسون لبعضهم ويضحكون،

وكانت أجمل فتاة في البلدة كلها، في عيني طبعًا، فتاة اسمها (رقية)، كنا نعرف بعضنا بحكم الجيرة، وأنا أَكْبُرها بثماني سنواتٍ تقريبًا، وهي طفلة اعتادت اللعب في بيتنا مع أختي، رأيتها وهي تكبر أمامي، وتعلَّقت أرواحنا ببعضنا حتى سافرتُ في البعثة، وجاءت إلى بيتنا؛ لتسلم عليَّ، أعددت أمي الفطور؛ فطير مشلتت، وجبن فلاحي، وبيض، وعسل أسود لذيذ، وقشطة صابحة، جلسنا أنا وأمي وأختي (راضية) و(ليلى) الشقيقة الصغرى، اقترحت أن أغير بعض الأشياء في البيت، فلديَّ مالٌ وحالتي ميسورة، هذا المال تكسبته أثناء دراستي، وكنت أتطلع إلى تجديد غرفتي، وجاءت (رقية) خارج البيت، وكانت تنادي على (راضية)، بصوتٍ ناعمٍ، عَذْبٍ، مُحبَّبٍ إلى سمعي.

فقلت لراضية: من هذه؟

قالت: دي رقية، نسيتها.

شعرت بإحساسٍ عميق يغمر قلبي، إحساس جميل، ورائع، قامت أختي، وبعد عدة دقائق، جاءت راضية، وقالت: يا أحمد، (رقية) جايه مخصوص تسلم عليك.

قلت: خلِّيها تدخل.

قالت: مكسوفة.

قمت أنا وخرجت، وراضية كانت تقف على الباب، فقلت لها: أُدخلي إنتي يا راضية، وأنا هجيبها.

قالت: ماشي.

عندما رأيتها، كانت تنظر إلى الجهة الأخرى -مِنِّي- في حياءٍ.

قلت: إزيك يا رقية.

قالت: إزيك يا أستاذ أحمد.

قلت: إزيك إنتي يا رقية، لم لا تنظرين إليَّ؟!

فنظرت إليَّ، وابتلعت ريقها بصعوبة، وكانت خدودها قد احمرَّت من الخجل.

قالت: بركة إنك رجعت بالسلامة.

قلت: الله يبارك فيكي يا رقية.... كنا ننظر لبعضنا في صمتٍ.

قلت: ما شاء الله! كبرتي يا رقية، وبقيتي زي القمر.

قالت: هتكسفني كدا، ومش هعرف أتكلم معاك.

قلت: لا خلاص يا ستِّي، مش هكسفك.

قالت: البلد كلها نورت يا أحمد.

قلت: منورة بيكي إنتي يا روقة.

ابتسمت وعيناها تدور وتتحرك في الطرحة التي كانت ترتديها.

قلت: مفيش حاجة اتغيرت في البلد.

قالت: لازم بلاد برة أحلى من بلدنا.

قلت: في كل مكان، فيه الحلو وفيه الوِحِشْ، يا رقية.

- أصلك رحت ومش كنت عايز ترجع.

قاطعتنا أمي، وقالت: إنتم واقفين كدا ليه، قدَّام البيت، أي حد مَعدِّي يقول إيه عليكم، أُدخلوا اِجلسوا داخل الدار.

قالت رقية: إزيك يا خالتي.

قالت أمي: إزيك يا حبيبتي، تعالي يا رقية، أُدخلي.

قالت: لأ هأبقى آجي وقت تاني، كنت جايه أسلم على أحمد، لما عرفت إنه رجع بالسلامة، ومبروك الدكتوراة، ألف مبروك.

قلت: الله يبارك فيكى يا رقية.

قالت أمي: الله يبارك فيكى يا حبيبتي، ونفرح بيكي قريب إن شاء الله.

قالت: ربنا يحفظه زينة الشباب.

بعد عدة نظرات بيني وبين رقية، قالت في حياءٍ: أنا هأمشي وهأبقى آجي تاني.

قلت: ماشي يا رقية، في انتظارك علشان عايز أتكلم معاكي.

قالت: حاضر، مع السلامة.

وذهبت.. كانت فاتنةَ الجمال، طيبةَ القلب، والروح، ذهبتْ وأنا أقفُ أنظر إليها، وجاءت أمي، وضعت يدها على كتفي.

قالت: يلَّا نخطبها، بنت جدعة وأهلها طيبين..... كنت أريد ذلك بشدة.

قلت: لها: إن شاء الله، لكن الآن ليس هو الوقت المناسب.

قالت أمي: إتقدملها ناس كتير، هي وأختك راضية، لكنها كانت بترفض، وأخوك أدهم، كان بيرفض عرسان راضية، قال لحد منتا ترجع، علشان تحضر فرحها.

قلت: ورقية كانت بترفض ليه؟!

قالت: كانت مستنياك يا حبّة عيني، اتجدعن بقى علشان أفرح بيك، وعايزين نجوز إخواتك همّا كمان.

قلت: طيب راضية ماشي، وليلى كمان بيجيلها عرسان.

قالت أمي: أيوه، والله بيجيلها عرسان، بس خلينا في راضية، هي الكبيرة.

فابتسمت لها، وقبّلت يدها، ثم جاء عمي (جابر) كبير العائلة وعمدة البلدة، وعمي (عبد الحميد) ليطمئنوا عليَّ، ولم يكن عمي (جابر) هو الكبير طبعًا، بل كان لديهم أخٌ أكبر وهو عمي (أحمد) الذي مات قبل أن أُولد إثر حادثٍ وهو يسقي ليلًا، وعاش أبي حزينًا بعد فقده؛ ولذلك سماني أحمد على اسمه، ثم جاء بعض الجيران.. كان يومًا صاخبًا.... ومرّت الأيام، وأنا على روتين يومي، وفي يومٍ جاء (بسيوني) صديقي؛ لزيارتنا، فهو يعمل في القاهرة، ويجلس هناك، ويعود بين الفينة والأخرى، ولمّا عَلِم أيضًا بعودتي جاء إلى البلد ليسلم عليَّ، وأخذ يحكي لي عن جهل الناس هنا، وأنا أقول له: هذا ليس جهلًا، ولكنها طِيبة.

وحدّثني عن جرائم القتل اللي كل سنة بتزيد في الشتاء، وعن الشاب اللي وجدوه ميت، إلخ....

وفي ليلةِ شتاءٍ ممطرة والجو شديد البرودة، لكن الجو العام كان هادئًا، كالمعتاد، وكنت مستيقظًا، لم أَنَمْ، كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، حتى سمعت صوتًا وكأنها صرخة، كانت أمي وإخوتي نائمين، بعد يومٍ شاقٍّ من أعمال البيت المنزلية؛ كالتنظيف، والطبخ، والطيور.. وخِلافها، وكان أخي أدهم يهتم بأمور الأرض والحيوانات.. وخِلاف ذلك، وأنا منتظر جواب التعيين الرسمي، وفي هذه الليلة كنت جالسًا في أحضان كتبي، حتى سمعت الصرخة، لم تكن واضحةً، ارتديت حذائي الرياضي، وخرجت من البيت؛ لأرى ماذا يحدث في الخارج، نظرت ولكن لم يكن هناك أحدٌ في الشوارع، والهدوء يسود المكان، مشيت قليلًا، حتى آخر الشارع المُوصل إلى الترعة القديمة، عندما تقف على رأس الشارع ترى الترعة، ومنها إلى طريق الساقية المهجورة، وكنت أسمع منذ صغري أقوالَ بعض الفلاحين: إن النداهة استوطنت الساقية المهجورة كبيتٍ لها، ولم يكن يجرؤ أيُّ شخصٍ أن يذهب إلى هناك بعد المغرب، مهما كان، حتى لو كان معه من الأضواء والإنارة ما يكفي لإضاءة البلدة كلها، لكني في صِبَايا لم أكن أؤمن بوجود شيءٍ كهذا، ولم أهتم، الحقيقة لا تحقق من الإشاعات، لم أكن هذا الشخص الذي يصدق كل ما يقال أمامه من مثل هذا.، مشيت قليلًا لأرى جيدًا، لا

أحد في الشارع. أنا واقف، ومنزل رقية في نفس الشارع، فمشيت قليلًا أكثر حتى بدأت الصورة تتضح، رأيت شابًّا يقف على شط الترعة، لم أقترب منه، أنا أراه فقط، من بعيد أنظر إليه، لا أعرف ماذا يفعل هذا الشخص في هذت الوقت؟! ناديت عليه لأَلْفِت انتباهه، عندما نظر خلفه ورآني ركض باتجاه الساقية المهجورة، ذهبت مُسرعًا لألحق به، حينها فُتِح باب أحد البيوت، وخرج شخص بسرعة، وأمسكني من يدي، وسحبني للداخل، أفلتُ يده، ومسكته بحركة عكسية من معصم يده، كدت أكسرها، كان والد رقية.

قال: أنا عمك (جمال)، نظرت حولي وجدت رقية، وأمها، وبنتًا صغيرةً نائمةً على الحصير، تركته واعتذرت له، أغلق الباب بسرعة.

قال: إنت إيه اللي مخرجك دلوقتي يا بني؟!

قلت: أنا سمعت صرخة وخرجت أشوف مين، رأيت شابًّا كان واقفًا على شطّ الترعة، وعندما رآني ركض ناحية الساقية المهجورة.... نطقوا جميعًا.. ألُطف يا رب، اللهم احفظنا.

قلت: هو فيه إيه يا جماعة؟!

قالت رقية بنبرة خائفة: دي النداهة يا أحمد، هو محدش حكالك عليها.

قلت: يا جماعة ندَّاهة إيه بس، دي أوهام في دماغ الناس، مفيش حاجة إسمها كده.

قال الحاج جمال: لأ يا بني! الجن عايش معانا، ولازم نتقبل وجودهم، ومنقدرش نعمل أي حاجة تانية.

قلت: يعني النداهة دي جن.

قال: نوع من أنواعه، فيه مخلوقات كتير عايشة بينا ونحن لا ندرك وجودها حتى، ودا من لطف ربنا بينا، كنت مستغرب من كلامه، وجدت إن المناقشة هطّول على الفاضي؛ فقررت الانسحاب.

قال: اتفضل يا بني، اقعد.

قلت: لأ شكرًا يا عم جمال، أنا هروح أنام، الوقت اتأخر.

قال: بس يا بني..!

قلت: متخافش يا حاج، أنا بعرف أدافع عن نفسي كويس.

كانت رقية تنظر إلى نظراتِ قلقٍ وخوفٍ، فنظرت لها أطمئنها، وخرجت، ذهبت إلى بيتي، غفوت حتى الفجر، وصليت، ثم نمت، وفي صباح اليوم التالي قمت على صوت رقية، وهي تحكي لأمي شيئًا عن شابٍّ اختفى، ولا أحد يعرف أين ذهب؟! خرجت من غرفتي لآراها، كنت أشتاق إليها، وإلى نظراتها لي.

قلت: لهم: صباح الخير.

قالت: يا صباح الورد.

قالت أمي: صباح الخير يا حبيبي، أجهز لك الفطار.

قلت: لأ هستحمى الأول.

جلست حتى سخّنوا لي بعض الماء للاستحمام؛ لأن المياه باردة كالثلج، انتهيت وتوضأت وخرجت، قلت: أين راضية، قالت أمي: عند زوجة أدهم، وليلى قالت: في المدرسة. دخلت غرفتي صليتُ، وكنت دائمًا أصلي ركعتين للّه نافلة، لما فيها من فائدة، وانتهيت. وجدت أمي تقول لي: تعالى يا حبيبي، الفطار جاهز، رقية اللي عملتلك الفطار النهاردة.

قلت: بجد، إتكسفت رقية، قلت: لها: تسلم إيدك يا رقية.

- تسلم إنت، بألف هَنَا وشِفَا.

قامت أمي، وخرجت، قالت رقية: بالله عليك، متخرجش بالليل تاني.

- يا بنتي أنا سمعت صرخة، وخرجت أشوف مين، عادي يعني.

- إحنا كمان سمعنا نفس الصرخة، وناس كتير سمعتها، لكن محدش عمل زيّك وخرج.

- أيوه دا اللي أنا مستغربه.

قالت: النداهة.

- تاني يا رقية.

- أيوه والله، النداهة، فيه شاب النهاردة اختفى، البلد كلها بتحكي عنه، إنه اختفى ومحدش عارف هو فين، دا تالت واحد يختفي في الشتاء ده، واحد في محصول الذرة واتنين دلوقتي.

قلت: هي كمان بتظهر طول السنة!!

قالت: منعرفش، هي بتظهر وتختفي، تاخدهم وتمشي.

- تصدقي، أنا بدأت أصدق بسيوني، إن واحد هو اللي بيقتل الناس دي، ومخوف البلد كلها.

قالت: هو بسيوني صاحبك دا عارف حاجة.

قلت: لأ إنتي اللي عارفة يا بت.

قالت وهي تبتسم: لأ دا الخواجات بتوع بلاد برة همّا اللي نسّوك كل حاجة عن بلدك.

قلت: آه من لؤم الفلاحين ده.

قالت: أنا لئيمة، دنا طيبة حتى.

قلت: آه لئيمة، علشان بتلفّي وتدوري، بس أنا هريحك.

قالت: هتريّحني إزاي؟!

قلت: أنا عمري ما نسيتك يا رقية.

قالت بحياءٍ، بنبرةٍ ناعمةٍ رقيقةٍ مُحبّبةٍ إلى سمعي: ولا أنا يا أحمد، أنا كنت مستنياك ترجع.

قلت: واديني رجعت.

وجاء صوت فَصَلَنِي، مما كنت فيه.

- حمد للّه على السلامة يا حبيبي، نوّرت البلد كلها يا زينة الشباب.

لم تكن هي، بل كانت أختي راضية، فابتسمت لها.

قالت: هو أنا جيت في وقت مش مناسب.

فضحكت رقية..

قلت: لها: تعالي يا راضية، افطري، وبطلي شقاوة.

قالت: أنا برضه اللي شقية.

قلت: وبعدين.

قالت: خلاص، أنا أصلًا فطرت مع عايدة وأدهم.

قلت: إنتي كنت هناك بتعملي إيه؟!

- كانت بتعجن وخبزت، وكنت بساعدها، وبعتالك دول.

كان "رقاقَ فلاحي" معمولًا بالسَّمن البلدي، طعمه لذيذ.

قالت: سمعت اللي حصل.

قلت: ها، إيه اللي حصل؟!

قالت: الرجالة لقوا جثة الشاب اللي اختفى في الترعة القديمة، ناحية الساقية وبلّغوا المركز، وعقبال ما جه الضابط، كانوا الناس طلعوا الجثة من الميه، ووضعوها على الأرض اللي جنب الميه، اللهم احفظنا.

قلت: وإنتي عرفتي منين؟!

قالت: مِن أدهم أخوك، كان معاهم.

انتهيت من فطوري، وخرجت، ذهبت لأدهم في البيت، قابلتني عايدة زوجته بودٍّ كبيرٍ، وسلمت على صغارهم وسألتها: هو فين أدهم؟!

- في الغيط.

فاستأذنتها، وذهبت إلى الأرض، كان أدهم يجلس تحت شجرة صفصافٍ على الترعة، بجوار الأرض، وقف ورحّب بي هو وشاب آخر كان معه، عرّفنا على بعضٍ.

قال: دا الدكتور أحمد أخويا، ودا صاحبي (مصطفى) جارنا في الأرض.

سلمت عليه وجلست معهم، بعد الترحيب جابولي شاي، كانوا مولعين نار ومعاهم عدة الشاي؛ كبايات، وسكر، وشاي، وبرّاد في قلب النار، صبّولي الشاي، ولن أحكي لك عن كباية الشاي الفلاحي، وجمالها؟!! مضاد حيوي طبيعي للصداع، قلت: لأدهم: لماذا لا تأتي وتجلس معي بالليل؟!

- أجيلك فين يا راجل يا طيب، في الصيف إن شاء الله بقى، بنفرش قدّام البيوت ونسهر، لكن الشتا يحب النوم. فابتسمنا، وأكمل..

- إنت مش عارف اللي بيجري في البلد ولا إيه.

قلت: إيه اللي حصل؟!

قال: الشباب اللي كل يوم عمّالين يموتوا دول، محدش قالك؟!

قلت: لأ عارف، سمعت عنهم، ربنا يرحمهم، لكن تفتكر موضوع النداهة دا بجد.

قال: أمّال.

قلت: ليه مفكرتوش مثلًا، إنه يكون واحد من البلد بيقتل الناس دي، وبيضحك على البلد كلها، ويتهمها في موضوع النداهة. ضحك أدهم ومصطفى.

قال: يبقإنت قعدت مع بسيوني صاحبك.

قلت: إشمعنى بسيوني.

قال: لأن بسيوني عمل بلاغ في المركز، وقال نفس الكلام الليإنت بتقوله، بيقول: إن مفيش حاجة اسمها النداهة، وإن اللي بيحصل بفعل فاعل.

قلت: ممكن برضه يا أدهم.

قال: عمومًا النهاردة هينزل البلد غفراء درج، للحراسة، هيحرسوا البلد، وأي حدّ هيطلع بالليل هيتقبض عليه. قلت: طيّب، ما كدا كويس. قال مصطفى صديق أدهم: البلد كلها والله يا دكتور، منتظرين الليل ييجي علشان يعرفوا الموضوع دا بجد، ولا مفيش نداهة أصلًا.

قلت: الله أعلم يا مصطفى، الموضوع محير فعلًا.

قال داعيًا: ربنا يلطف بينا.

جلسنا حتى أذّن الظهر، واستأذنت لأذهب إلى المسجد، قاموا وارتدوا ملابسهم -كما تعرفون الفلاح يخلع جلبابه وهو يعمل في الأرض، ويبقى بالسّديري واللباس الطويل، يشبه لبس الصيادين زمان- وقام أدهم وقال: إحنا جايين معاك، انتظر.... وتركوا كل شيء مكانه عدا البرّاد، أبعده مصطفى عن النار، وفرّغ منه الشاي المت بقى وغسله، وذهبنا، وجاء أدهم بجواري.

قال: متبقاش تخرج بالليل يا أحمد.

قلت: لماذا؟!

قال: لو سمعت أي حاجة متخرجش، بالله عليك، وانتبه لأمك واخواتك.

قلت: وإنت عرفت منين؟!

قال: البلد كلها بتتكلم وتحكي عن الشاب اللي خرج لما سمع صوت النداهة، ولولا الحاج جمال -اللي كنت هتكسرله إيده- الله أعلم كان إيه اللي هيحصل.

قلت: ياخي، والله بلدنا دي غريبة، يعني -لا قدّر الله- لو حصل حريقة، أو حدّ كان محتاج مساعدة فعلًا محدش هيخرج يساعده، ولو كنا خرجنا ورحنا ورا الشاب اللي لقتوه النهاردة يمكن كنت لحقته.

قال: نصيبه كدا ومكتوب، خد بالك إنت ياخويا من نفسك، النداهة محدش بيقدر يقف قدامها.

قلت: خليها على الله يا أدهم.

صلينا، ودعاني للغداء عنده في البيت، استأذنت وقلت له: يوم تاني إن شاء الله، وذهبت إلى البيت؛ وجدت أمي وأختي، جهّزوا الغداء، وكانت مأدبة من الطيور المختلفة والأرز المعمر في الفرن البلدي، وبالسمن البلدي، أخذت أدور بعيني في البيت، أبحث عن رقية، لم أتكلم، قالت أمي بابتسامة على ثغرها: ذهبت إلى بيتها، هل ستمكث معنا طوال اليوم؟!

قلت: لها: من هي؟

قالت: يا واد اطلع من دول، دنا أمك عارفاك أكتر من نفسك.

قلت وأنا مبتسم: بتتكلمي عن مين؟! كلامها دائمًا محبب إلى قلبي، يجعلني أبتسم.

قالت: رقية.

قلت: آه طيّب، ليه مقولتلهاش تتغدي معانا.

قالت راضية: أختها ندهتها.

قالت أمي: ها إيه رايك؟

قلت: في إيه؟

قالت: يا واد متتعبنيش.. في رقية.

قلت: كويسة.

قالت: نخطبهالك.

قلت: موافق، لكن لما أتعين وأستلم وظيفتي الأول.

قالت: يوه نسيت. وقامت من على الأكل، دخلت غرفتها وأتت بظرفٍ، وقالت: خُدْ يا حبيبي الجواب دا، جالك في البوسطة النهاردة. فتحت الجواب، كان جواب التعيين الرسمي في جامعة القاهرة، والمفروض أن أذهب غدًا إلى الإدارة في القاهرة؛ لأستلم وظيفتي، وبشّرت أمي فزغرطت من فرحتها، وطبعتْ أختي راضية قبلةً على خدّي، لا أحد في الوجود يفرح لك دون مقابل؛ مثل: أمك وأخواتك، حبُّهم خالدٌ إلى الأبد، ومن قلبهم.

قالت أمي: بشرى كويسة، وأنا هروح العصر لأم رقية، وأفاتحهم في الموضوع.

قلت: لها: على بركة الله.

وعصرًا ذهبت أمي إلى رقية، وخرجت أنا راكبًا حصاني (بحر)، وكان يحبُّني كما أُحبُّه، وتجوّلت به قليلًا، وجدت (قيصر) كلبي الودود الشرس، يتبعني يمشي وراءنا حتى وصلت إلى طريق الساقية المهجورة، وقفت أنظر له، وأرى المكان جيّدًا من مكاني، انتابني شعورٌ غريبٌ، وكأن هناك أحدًا يُناديني، لا أعلم؛ هل سمعتُ هذا النداء جيّدًا أم أثارني الخيال، لا أعلم.. انتابتني رغبة في الذهاب إلى هناك، لكن أفاقني من رغبتي وخيالي نباحُ (قيصر)، نظرت إليه كان مُتحمّسًا، وكان حصاني (بحر) يدبدب بأرجله في الأرض، وأنا أعلم لغتهم جيّدًا عندما يريدون حمايتي، ولكن شعورٌ قويٌّ جعلني أذهب إلى هُناك لأتفحص المكان، وبالفعل ذهبت إلى الساقية المهجورة، ولم يكن هناك شيء غير الهدوء، هدوءٌ مُقلقٌ يعمُّ المكان، وكان الوقت مُبكرًا، في أول النهار، ولكن لا أعرف ما حدث لقيصر، ظل ينبح على البئر.

وكأنَّ هناك شيئًا ما بداخله، نظرت ولكني لم أر شيئًا من شدة الظلام، وحاولت أن أُوقف نُباح قيصر، ولكني لم أستطع، فركبت (بحر)، وعدت إلى بيتي، وأطعمته بعض قطع السكر، وكنت أفكر فيما حدث، والشعور الذي انتابني، فقطعت أمي تفكيري.

قالت: مبروك يا حبيبي، الحاج جمال وافق.

قلت: بجد.

قالت: آه طبعًا، وهمّا هيلاقوا أحسن منك فين، هتروح تقول لأخوك وأعمامك، وتاخد الرجالة وتروحلهم بكرا علشان تتفقوا على كلّ حاجة، هو هيستناكم بكرا العصر.

قلت: إن شاء الله، هروح لأدهم بسرعة، وأرجع.

قالت: تروح فين؟! المغرب هيأذن!

قلت: وإيه يعني مش فاهم.

قالت: يا بني محدش بيطلع بعد المغرب.

قلت: يأمي أنا مش هغيب، وبعدين هو أنا لسه صغير، ثانيًا إنتي نسيتي إني غدًا، ذاهب إلى القاهرة لأستلم الوظيفة.

قالت: لا لن تذهب الآن، وغدًا سأرسل أختك راضية لأدهم أخوك.

قلت: لازم أروح أنا، مينفعش راضية.

قالت: علشان خاطري يا حبيبي.

قلت: يا أمي مَنَا بطلع أصلي في المسجد، والناس كلها بتخرج تصلي المغرب والعشاء عادي، ولم يحدث شيء.

قالت: المسجد خطوتين، لكن أخوك بعيد.

لن تُغيّر أمي رأيها مهما فعلتُ، فقلت لها: حاضر يا أمي، اللي إنتي عايزاه. بعدما دخلت.. ركبت (بحر)، وانطلقت إلى منزل أخي و(قيصر) يتبعني،

أذَّن المغرب وأنا في الطريق، كانت الطرق قد بدأت تخلو من المارّة، إلَّا من بعض الناس العائدين بالبهائم من الغيط، وآخرون ذاهبون إلى المسجد، وبدأ الناس في غلق شبابيك البيوت، كنت بالقرب من المسجد الآخر في الناحية الأخرى من الترعة، فذهبت إليه لأصلي المغرب، وكان أخي أدهم هناك، صلّينا وخرجنا.

قلت: له: غدًا -إن شاء الله- تعمل حسابك سنذهب إلى بيت الحاج جمال، بكرة العصر، علشان نخطب رقية.

عانقني بشدة، وقال: أخيرًا يا راجل، هنفرح بيك، ويا زين ما اخترت يا أخويا، البت رقية بت بنت حلال وأهلها ناس طيبين. ونغزني في كتفي وهو يضحك، وقال: وحلوة يا لئيم.

ابتسمت وقلت له: متنساش.

قال: همرّ عليك الصبح أجلس معاك شوية؛ علشان نتشاور هنقول إيه، وهنعمل إيه.

قلت: الصبح مش فاضي، عندي مشوار ضروري.

قال: أنا كدا كدا هروح أخد (زغلول) الحمار علشان محتاجه في شغل بكرة.

قلت: ماشي.

قال: لكن مشوار إيه دا اللي هيصحيك بدري كدا.

قلت: ذاهب إلى القاهرة؛ لأرى موضوع الوظيفة، وممكن أستلم بكرا بإذن الله.

قال: ألف مبروك، ربنا يتمملك على خير يا حبيبي. وقبل العصر هأكّل البهايم، وأجيلك البيت، لكن مش هتقول لأعمامك؟!

قلت: مهمتكإنت بقى يا بطل.

قال: عيني الاتنين ليك يا بو حميد، هوّ أنا عندي أغلى منك.

قلت: يلّا هروح.... إركب لما أوصّلك.

قال: دا الحصان أخد عليك خالص.

قلت: له: اسمه (بحر) -وأنا أملّس على شعر رقبته الناعم الطويل- أوصلت أخي إلى داره، وعدت في طريقي إلى البيت، في طريق الترعة القديمة، كان يقف خفير ويحمل سلاحه، أشرت له بالسلام، فردَّعلى السلام، وبعد مسافةٍ قليلةٍ منه، خفير آخر، وحين وصلت إلى الشارع الذي تسكن فيه رقية حبيبتي، كانت تغلق شباك بيتها، من حسن حظّي؛ أشرت إليها، فأشارت لي في حبٍّ ومرحٍ، ثم أكملت طريقي، وأنا أمشي في تؤدةٍ بالحصان، حتى وصلت إلى بيتي، و(قيصر) يمشي خلفي، وكان هادئًا حتى نسيت أنه كان معي، أدخلت (بحر) لمكانه و(قيصر) أيضًا، ودخلت من باب البيت، وجدت أمي في انتظاري، قبّلت يدها، وسلمت على راضية، وداعبت ليلى؛ كنت أحب دومًا أن أدلّلها.

قالت: عملت اللي في دماغك ورحت لأخوك.

قلت: معلش يا حبيبتي، كان لازم أروح أنا، علشان ميزعلش.

قالت راضية مازحةً: منا كنت هروح بكرة، ولا أنا مش مالية عينك يا خويا.

ابتسمت لها وقلت: إنتي تملي عين الباشا يا قمر إنتي. وأرسلت لها قبلةً على الهواء.

قالت أمي: وأعمامك أنا هروحلهم بكرة.

قلت: متتعبيش نفسك يا حبيبتي، سيذهب أدهم إليهم غدًا، ربنا ما يحرمني منك أبدًا يا حبيبتي.

قالت لراضية: هاتي الأكل لأخوكي علشان نأكل لقمة مع بعض.

قلت: سأذهب لصلاة العشاء أولًا وأرجع، تكونوا جهزتم الأكل. وذهبت للمسجد، وقابلت الشيخ محمود، يعمل بالأزهر الشريف، ويذهب للعمل يومين في الأسبوع، وهو إمام المسجد هنا، سلمت عليه، وتكلّمنا في موضوع النداهة، وقال لي بعض الأشياء، ثم ذهبت إلى البيت، وأثناء الطعام تكلمتْ راضية معي، وكنت أفكر في شيء آخر؛ لم أسمع ما تقول، حتى قلقت!

قالت أمي: أحمد يا أحمد!

همهمتُ فقط، ولم أتكلم؛ فما قاله الشيخ محمود مرعبٌ حقًّا، ويستحق التفكير.

قالت يا أحمد بصوتٍ عال. ولمست يدي، وأكملت: في ماذا تفكر وسرحان؟! بدى عليهم القلق، عملتُ مقلبًا في راضية؛ قلت: لها: ما هذا؟ وأشرتْ خلفها، نظرتْ خلفها فروّعْتها، قالت: إخس عليك يا أخويا خضتني، وضحكنا جميعًا، كانت ليلى تضحك كثيرًا.

قالت راضية: العروسة لحقت تاخد عقلك.

ابتسمت لها، وقلت: لا، لم تأخذه بعد. وضحكنا مرّةً أخرى.

وكنت مشغولًا في التفكير.. أسئلة كثيرة تدور في عقلي؛ هل الخفر سيقبضون على أحدٍ؟ هل هناك أحدٌ يَقْتلُ فعلا، أم إنها النداهة، أو أيًّا كان اسمُها؟! كما قال الشيخ محمود، كاد عقلي أن ينفجر من التفكير، وجلست أقرأُ، وفي الواحدة بعد منتصف الليل؛ سمعت صرخةً، وصوتَ عيارٍ ناريٍّ دوّى في البلد بأكملها، وضعت الكتاب من يدي وارتديت الحذاء (الكاوتش) الخاص بالركض والرياضة، ونظرت في الخارج، لست وحدي مَنْ خرج هذه المرّة، خرج بعض الشباب واقفين، كلٌّ أمام بيته، وجاء صديقي بسيوني، عندما رآني صافحني.

قال: إنه سيمرّ عليَّ غدًا، لأنه وصل مُتأخّرًا.

قلت: له: حمد للّه على السلامة.

قال: الله يسلمك.

قلت: لِمَ لَمْ تذهب إذن إلى المسجد لصلاة العشاء؟ بما أنك في البلد.

قال: هذا صحيح، صليت بالبيت، ما رأيك فيما يحدث هنا؟!

قلت: أنا لا أفهم؛ ماذا يحدث أصلً.. ضرب نار، وناس بتموت، وشكلك كدا هتطلع صح في الآخر، وهيكون مجرم بيقتل الناس باسم النداهة.

قال: ربك يسترها، بكرة هنعرف إيه اللي حصل.

قلت: لماذا لا نذهب إلى هُناك الآن.

قال: ومن سيذهب؟! الشرطة محذّرة الناس، اللي هيروح مكان الجريمة، هيمسكوه، والناس خايفة.

قلت: إذًا تعالىإنت معي.

قال: لا طبعًا، مينفعش نروح اتنين فقط في مكان جريمة، سنضع أنفسنا في موضعِ شكٍّ.

قلت: آه ماإنت محامي!! فهزّ رأسه في ثقة، وتبسم.

قلت: لازم نلاقي حل، وناديت على بعض الشباب، وقلت لهم: سنذهب إلى الترعة لنرى ما حدث؛ مَنْ سيأتي معنا؟ -لم يكن الأمر كما قال بسيوني: إنهم خائفون؛ فالفلاحون لا يخافون شيئًا- فوافقوا جميعًا.

قلت: لبسيوني: هيّا بنا، لم يوافق.

قال: سأنتظر للصباح وأعرف ما حدث.

وبينما نحن نتكلم مرّت سيارة الشرطة بجوارنا، ثم وقفتْ، ونزل ضابطٌ من السيارة.

قال: أرجوكم يا جماعة، كل واحد يذهب إلى بيته، ولا يخرج إلّا صباحًا.

قلنا: تمام.

قال بسيوني: إزيك يا ماهر باشا. جاء إلينا وانصرف الشباب، وسلّم على بسيوني.

قال بسيوني: أعرّفك بصديقي الدكتور أحمد اللي كلمتك عنه قبل كدا.

فمدّ يده بالمصافحة، فصافحته.

قال: تشرّفت بيك يا دكتور.

قلت: إتشرفت بحضرتك يافندم.

قال بسيوني: صديقي حضرت الضابط ماهر.

قلت: تشرفنا يافندم.

قال: الشرف ليّا.

قال بسيوني: كنت أريد أن أعرّفكم ببعضٍ لكن لم تأتِ فرصة.

قال ماهر: لولا الظروف كُنّا جلسنا شوية مع بعض، لكن هستأذنكم، علشان الشغل ضروري، واتفضلوا إنتم أُدخلوا بيوتكم.

قال بسيوني: خير يا ماهر باشا.

قال: جالنا بلاغ اختفاء غفير.

قال بسيوني: يا ساتر يا رب إزاي حصل؟!

قال ماهر: الغفير زميله بيقول: انتابته حالة من الجنون، مرة واحدة ضرب طلقة من السلاح بتاعه في الترعة، ورمى السلاح، وجري ناحية الساقية المهجورة.

قال بسيوني: لا ما دام الموضوع كدا، إتفضل حضرتك يافندم. وبسرعةٍ قلت: لو سمحت يافندم، ممكن آجي معاكم.

قال: لا مينفعش، أُعذرني وخصوصًا إنك لستَ طبيبًا بشريًّا، والموضوع خطر.

قلت: له: لا تقلق يا أفندم، سألتزم الصمت.

قال: سامحني لا أستطيع، سأتعرض للمسائلة القانونية، ولا يرضيك أن تؤذيني.

قلت: ربنا ما يجيب أذيّة، إن شاء الله، اللي حضرتك شايفه.

قال: سلام عليكم، وذهب في طريقه.

قال بسيوني، بعد تفكيرٍ عميق: الغفير ضرب نار في الترعة، وجري ناحية الساقية المهجورة.. أمر مُريب.

قلت: في ماذا تفكر؟!

قال: لا شيء، شوية وعمّك والغفراء هيقلبوا البلد، أفضل شيء ندخل ننام. واستأذن ودخل بيته.

ودخلت بيتي، وجدت أختي راضية مستيقظة وأمي أيضًا، طمأنتهم، ثم عادوا إلى نومهم، وغفوت أنا أيضًا، واستيقظت مُبكرًا، وذهبت إلى محطة القطار؛ لأركب قطار الخامسة صباحًا، ثم ذهبت إلى جامعة القاهرة، فدخلت عمادة الكلية، وبعد تحيةٍ وحوارٍ استلمت وظيفتي، والحقيقة أنهم قابلوني بكلّ وُدٍّ وحُبٍّ.. انتهيت من إصدار بعض الأوراق

الثبوتية، كنت أريد أن أنتقل إلى (طنطا)، لكن للأسف، في هذا الوقت لم يكن هناك مبنًى لكلية العلوم، لم يتم إنشاؤه بعد.... ثم عدت إلى بلدتي بسيارة أجرة في الثانية والنصف مساءً، وفي هذا الوقت في الأرياف لم أجد أحدًا في الشوارع، ولا حتى الغفراء، عدت إلى بيتي، وجدت أمي وأختاي جالسين، سلمت عليهم... وقبّلت يد أمي، ثم ذهبت للاستحمام وبعد أن خرجت؛ كانوا قد جهّزوا الأكل، جلسنا وكانوا في انتظاري لم يأكلوا شيئًا حتى أتيت وجلست معهم على المائدة.

قالت أمي: إيه يا حبيبي عملت إيه.

قلت: الحمد لله اتعينت في جامعة القاهرة.

قالت أمي: ألف مبروك يا حبيبي.

قلت: الله يباركلي فيكي يا أمي.

قالت: مالك يا أحمد؟!

قلت: بفكّر آخد سكن في القاهرة وأقعد هناك.

قالت أمي: وتسيبني تاني يا أحمد، وهتقعد لوحدك يا حبيبي، هتاكل إزاي، وهتعيش إزاي؟!

قلت: هيّا أول مرة يعني يا أمي... مش أحسن ما أفضل رايح جاي كدا في المواصلات كل يوم... أنا طلبت نقلي لأي جامعة قريبة من البلد لكنهم رفضوا طلبي، وقالوا: إنهم محتاجني في جامعة القاهرة، وقالوا: إن شاء الله لكن مش دلوقتي، عمومًا لسه مقررتش هأعمل إيه.

قالت: الليإنت شايفه لمصلحتك إعمله.. أحسست أني فطرتُ قلبها.

قالت راضية، بشقاوتها المعتادة عندما صمتت أمي: إن شاء الله ياخويا تبقى أحسن دكتور في مصر كلها والنعمة دي. وأشارت إلى طاجن الأرز المعمّر: أنا عايزة أوزع شربات على البلد كلها، أهم حاجة تاخد بالك من البنات لا يعاكسوك.

فنظرت لها، وابتسمت، وتذكرت أدهم.

قلت: اه صحيح هو ادهم جه ولا لا

قالت راضية: أيوه جه الصبح، أخد الحمار ومشي، وقال هييجي العصر أو بعد العصر بشوية.

فأومات برأسي، وقلت: متعرفيش راح لأعمامك ولّا لأ.

قالت: مش عارفة.

قالت أمي: أيوه راح يا حبيبي الصبح وبلغهم، وهيتجمعوا العصر هنا، وخلاص العصر على آذان، أهو زمانهم على وصول.

قلت: يدوب أجهز نفسي.

دخلت غرفتي، تناولت البدلة السوداء من موضعها؛ تجعلني أنيقًا حين ارتديها.

قالت أمي حين رأتني أنظفها وأخرجها من تغليفتها: إنت هتلبس البدلة دي النهاردة.

قلت: وفيها إيه يا أمي.

قالت: أُتركها للفرح لكي لا تخرب وتضيع لمعتها.

فابتسمت، وقلت لها: بغض النظر عن إنها هتخرب لكن هيا لن يحدث لها شيء، ولكن قولي لي ماذا أرتدي؟!

قالت: ارتدي جلباب زي أخوك وأعمامك، وخلّي البدلة في الفرحة الكبيرة، إن شاء الله.

قلت: مش فارقة كتير يا أمي، وأنا عندي بِدَل كتيرة، وللفرح هشتري واحدة جديدة.

قالت راضية بأسلوب مرح: يا بختك يا رقية، عريس زي القمر، هتاخدي زينة الشباب.

قلت لها: وعريسك هي بقى أحسن مني مائة مرة يا بت إنتي.

قالت: ربنا يخليك لينا يا حبيبي، مفيش حد في الدنيا دي كلها أحسن منك.

قالت ليلى: أنا هلبس الفستان الجديد بتاعي اللي إنت جبتهولي.

قلت: وماله يا حبيبتي إلبسيه.

لثمتني على خدي، وكان آذان العصر، مشطت شعري، وارتديت بدلتي، وجاء أدهم، وبعد الترحيب أثنى على بدلتي.

قال: هو النهاردة الفرح ولا إيه؟

وفي هذا الوقت كان القليلون جدًّا من أهل بلدتي مَنْ يرتدون البدل، كانت الملابس وقتها هو الجلباب الفلاحي الجميل وتحته السديري، ومن

اللازم لبس السديري؛ تحس أنه واقٍ ضد الرصاص، جاء أعمامي، وقابلتهم في ودٍّ ومحبةٍ في حين أني لم أكن أتردد عليهم كثيرًا.

قال عم جابر، وكان أكبر أعمامي سنًّا إن لم تكن تعرف: إيه يا دكتور الليإنت لابسه دا؟!

قلت: ماذا يا عمي؟ بدلة.

قال: يا راجل إلبس جلابية فلاحي ولا معندكش.

قلت في تؤدة: لا عندي، لكن أنا كدا مرتاح، إتفضل يا عمي.

قال عمي الأصغر عبد الحميد، وكان مرحا: ياخويا سيبه براحته؛ يلبس اللي هو عاوزه. بعد ما سلم على أمي جاء ناحيتي وسلم عليَّا، وعانقني وهو يقول: ألف مبروك يا دكتور، إلبس الليإنت عايزه، إحنا خايفين عليك من العين، لأحسن تتحسد مننا.

ضحك المجلس بأكمله.

قال عمي جابر: طيب يا ولدي، هنقول إيه هناك لما نروح... الفرح بعد أد إيه.... والخطوبة، والحاجات دي عامل حسابك؟!

قلت: كله تمام يا عمي، كل اللي همَّا عايزينه، أنا جاهز، الحمد لله.

قالت أمي: يعني إيه يا حبيبي أي حاجة هيقولوا عليها هتوافق؟!

قلت: طبعًا يأمي ما دام متفقين خلاص.

قالت: ماشي يا بني لكن بالأصول.

قلت: حاضر يا أمي. وطبعت قبلة على جبينها، وقلت لهم: لا تتأخروا.

قالت راضية: وراكم على طول.

وخرجنا، ومشيت بجوار عمي جابر.

- قولت أمّال الغفراء راحوا فين يا عمي؟ مش موجودين النهاردة يعني!

قال بتنهيدة: بعد اللي حصل إمبارح كلهم خايفين ييجوا تاني، والحكومة سحبتهم، محدش فيهم راضي يشتغل هنا.

قلت: وانتم لقيتم الغفير بتاع إمبارح.

قال عبد الصمد: أيوه لقيناه، فِضْلوا الغفر يبحثوا عنه لغاية ما لقوه، لكن لقوه -بعيد عنك- مخه إتلحس من اللي شافه.

قلت: اتجنن يعني؟!

قال: أيوه طبعًا، ربنا يلطف بيه.

قلت: هو ماله؟!

قال: لقوه بداخل البئر في الساقية القديمة.

وباغته بسؤال أكثر ذكاء؛ قلت: جوا البئر؟! وقع يعني!

نظر إليَّ نظرةً، وكأني جاهل لا أفهم شيئًا، وهو على حقٍّ؛ فأنا لا أفهم شيئًا... هذا الرجل يثير حفيظتي.

قال في تؤدة: النداهة ندهته، وكانت هتاخده معاها لولا بقى أنا والضابط ماهر لحقناه هو والعساكر والغفر، وتعبنا لغاية لما طلعناه من البئر، وكان بيصرخ.

قلت: وإنت مصدق الموضوع ده يا عمي.

- ولازم تصدق إنت كمان يا أحمد، علشان اللي مش بيصدق بوجودها بتندهه يابني، أنا شفته بعيني.

قلت: طيّب يا عمي، إنت طول عمرك شفت حاجة زي كده؟!

قال: دا وقته دا، إنت في إيه ولا في إيه يا دكتور!

كنا قد وصلنا إلى منزل راضية، جعلني هذا الرجل أفكر كثيرًا ولم أظفر منه بمعلومة، طرقنا الباب بينما كان مفتوحًا، فخرج الحاج جمال ورحب بنا ترحيب الأبطال.

قال: أهلًا وسهلًا! يا أهلًا وسهلًا! يا ألف أهلًا وسهلًا! اتفضلوا.

قال عمي جابر: إزيك يا حاج جمال.

وسلموا على بعضهم...

- منورين يا جماعة.

- دا نورك إلخ...

وابلٌ من الترحيبات، وبعد انتهائهم من الترحيب جاء وقت الضيافة..

قال الحاج جمال: هناكل لقمة مع بعضنا علشان يبقى عيش وملح.

نطق الجميع وكأنهم في ثورة: متشكرين يا حاج، أهل كرم.

قال عمي جابر: يا راجل يا طيب! لسه هيكون بينا عيش وملح دلوقتي، دحنا عائلة واحدة.

قال: طبعًا يا عم جابر، شرفتونا وكترتونا، منورين الدنيا كلها.

عايز أنطق وأقوله: كفاية بقى يا عمي جمال الترحيبات دي كلها، خلونا نخش في الموضوع، لكن احترامًا للكبار لا أستطيع التحدث، تركته مع عباراته الترحيبية.. قال مرة أخرى: الأكل جاهز والله يا جماعة.

قال عمي جابر: أُقعد بقى يا حاج جمال، خلي الأكل بعدين، خلينا في المهم.

قال: اؤمرني يا حاج، طيب نجيب شاي الأول علشان نعرف نتكلم، ولو إن إحنا مجهزين الأكل، لكن اللي إنتم عايزينه، دا بيتكم مش عايزنا ناخد البركة منكم!

أأنا أود أن أقول لهذا الرجل: بقالك ساعة بتضايف فينا ترحيبات اتهرينا!

قلت: المرات جاية كتير يا عم جمال... ربنا يزيدكم، خلونا بقى في المهم.

قال عم جمال: هاتوا الشاي يا جماعة.

قال عم جابر: صلوا على سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم.

قلنا جميعًا: عليه أفضل الصلاة والسلام.

قال: بقى إحنا مش غرب عن بعضنا، فمن غير مقدمات كتيرة، عايزين رقية بنتكم لابننا الدكتور أحمد.

قال: ألف بركة، دنا أوديها لغاية البيت يا حاج، يا سلام دا أحمد دا ابني، ولو إنه يعني متهور شوية، كان هيكسر إيدي لكن زي بعضه، مش هلاقي أحسن منه في البلد كلها.

كان الجميع يضحك وينظرون إليَّ عندما قال: كان هيكسر إيدي. وأنا كنت مُستحٍ جدًّا من فعلتي.

قال عمي: على بركة الله، نقرأ الفاتحة.

قال عم جمال: موافق، على البركة، نقرأ الفاتحة... وقال بصوتٍ عالٍ: يلّا يا جماعة هنقرأ الفاتحة علشان الحريم يسمعوا ويقرؤوا معانا.

علت الزغاريط واتفقنا على الذهب والفرح والعفش (العزال، الموبيليا، غرف النوم وهذه الأشياء).

قال عمي جمال: بالنسبة للدهب اللي أقدر أجيب بيه "لا يكلف الله نفسا إلا وسعها"، وتركها لنا.

قال: الدهب له، جاب بجنيه لنفسه، جاب بألف لنفسه.

فاتفاق الذهب لم يكن شرطًا؛ إن لم تستطع أن تشتري ذهبًا فلا حاجة له، في هذا الوقت كان الجرام بتسعة جنيهات فقط، وكانت اتفاقات الزواج قائمة على أن الذهب ليس شرطا إحضاره كاملًا، وإنما يمكن إحضار دبلة الخطوبة فقط والباقي على قدر استطاعتك، جابو الشربات، وكانت رقية هي من تحمل الشربات، وكان هناك زيطة، والكل فرحان ويبارك، وعبارات تهنئة هنا وهنا، ولكني كنت لا أرى شيئًا غيرها في وسط كل هذه الضوضاء المحببة للنفس، كنا ننظر لبعضنا، شعرت بالسعادة حقًّا، كان شعورًا جميلًا، وكأنه كان يسري في دمي، وتهنا في

أعين بعضنا، حتى وجدت أمي دخلت إلى الغرفة وعانقتني وقبلتني، وأختي راضية وليلى، وعانقوا رقية وقبّلوها.

قلت في نفسي: أنا أولى بهذه القبلات، هي حبيبتي أنا.

واتفقنا على كل شيء؛ أن تكون الشبكة يوم الخميس القادم، وستكون أمام البيت، وجلسنا في تؤدة، يتثامر الرجال حتى اقترب أذان المغرب، واستأذن أعمامي، وخرجت معهم، عاد الحريم للبيت، وعند سماعنا أذان المغرب ذهبنا إلى المسجد، صلينا، وبعد الخروج من المسجد صافحني أعمامي وباركوا لي، وعدت إلى البيت بعد العشاء، وذهبت إلى النوم ولم يحدث أي شيء في البلدة هذه الليلة؛ كانت هادئةً، استيقظت لصلاة الفجر وبعد الصلاة جلست خارج الدار لأستنشق بعض الهواء، وشعرت أني أريد النوم، فنمت ثم استيقظت الساعة العاشرة.

ذهبت لبيت رقية، أخذتهم وذهبنا إلى محل الصاغة، وجلبت لها بتسعمائة جنيه ذهبًا، ليزن الذهب الذي اشتريته مائة جرام، كنت أريد أن أجلب لها طقمًا كاملًا، ولكنهم لم يوافقوا؛ لأن الطقم ثلاث قطع، بالمقابل ممكن يجيبوا دهب كتير بالجرام مكانهم، وكانت الأمور ميسرة، واشتريت لها بعض الأغراض؛ من الملابس والهدايا، وعدنا للبيت، كانوا مجهزين الغداء، وأكلنا سويًّا، وشربنا الشاي كان ذلك قبل العصر، ثم استأذنت وعدت إلى البيت، ذهبت إلى غرفتي وغفوت ساعة، ثم قمت بدلت ملابسي، وذهبت إلى المركز، كل ذلك ولم أر بسيوني: أين ذهب

هذا الشخص بعد أن أخبرته عن الشبكة، لم أره بعدها ذهبت إلى الضابط ماهر لأدعوه لحضور الشبكة، ولأتعرف عليه جيدًّا أيضًا؛ فهو إنسان شجاع، وكنت أريد أن أعلم ما حدث؛ لماذا الخفراء تركوا عملهم؟! ولماذا تركوا البلد مرة أخرى؟! وماذا حدث مع الخفير الذي أنقذه ماهر ورجاله؟!.. تدور في رأسي الكثير من الأسئلة، أريد لها إجابةً، ولابد أن أعرفها، وأين ذهب بسيوني؟!.. امتطيت حصاني، وذهبت للمركز، حين وصلت تركت حصاني جانبًا وسلّمت على الخفير الذي كان يقف أمام البوابة المتهالكة، كان من البلد، وأعرفه ويعرفني، ثم سألته: هل الضابط ماهر موجود؟

قال: آه موجود في مكتبه. شكرته ودخلت.

في مدخل الباب مكتب قديم متهالك، ظاهرة على ملامحه مر السنين، خلفه كرسي خشبي قديم من أيام الهكسوس، يجلس عليه عسكري، ونفس الأسئلة: جاي لمين يا حضرت؟!

قلت: لماهر بيه، بلغه، بس قول له: أحمد رضوان.

فأبلغه العسكري.

قال لي: اتفضل، اصعد الدور الأول، المكتب على اليمين. صعدت وطرقت الباب، فقابلني بترحابٍ ووجهٍ بشوشٍ.

قلت: السلام عليكم.

قال وهو يقوم من مكتبه لاستقبالي: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

قلت: إزيك يا ماهر بيه. صافحني مصافحة حارّة.

قال: إزيك يا دكتور.

قلت: الحمد لله تمام.

قال: اتفضل. وأشار بيده لأجلس.

كان مكتبه مدهونًا باللون البني، عليه يافتة مكتوبٌ عليها الاسم، وبعض الأوراق في جوانب المكتب، ودوسيه أمامه مفتوحٌ، يبدو أنه كان يقرؤه، وفي الأمام كرسيان من الخشب لا بأس بهما، وطاولة في الوسط، جلست على كرسي ووجهي إلى الباب.

قال: تشرب إيه؟!

قلت: أي حاجة على زوقك.

رفع سماعة الهاتف القديم، ولفَّ القرص لفةً واحدةً على رقم صفر.

قال: اتنين شاي لو سمحت يا عم درويش. ووضع سماعة الهاتف.

- إيه الأخبار؟

قلت: الحمد لله.

قال: كنت عايز أتعرف عليك، بسيوني كلمني عنك كتير، هو فين صحيح.

قلت: كنت لسه هسأل حضرتك، إفكرته جه هنا.

قال: لا والله، لم أره من أمس.

قلت: ما علينا، حضرتك أنا اتشرفت بمعرفتك.

قال: الشرف ليَّا أنا، المكتب نوَّر والله يا دكتور، وألف مبروك على الخطوبة.

قلت: حضرتك عرفت.

قال: مفيش خبر في البلد بيستخبى أكتر من نصف ساعة.

قلت: أنا جاي لحضرتك علشان كده.

قال: خير إن شاء الله.

قلت: أنا أكون سعيد جدًّا لو قبلت دعوتي؛ إنك تشرفني في الشبكة يوم الخميس، إن شاء الله.

قال: طبعًا طبعًا، لي الشرف من غير ما تقول يا دكتور، وألف مبروك مرة أخرى.

قلت: الله يبارك في حضرتك يافندم.

قال: منورني والله.

قلت: تسلم يافندم، منور بيك.

قال: من حق يا دكتورإنت وبسيوني أصدقاء من زمان!

قلت: بسيوني يعتبر صاحبي الوحيد، حضرتك عارف الزمالة كتير، والحبايب برضة الحمد لله كتير، لكن الصحاب الكويسين بيكونوا قليلى ن، وبسيوني من وإحنا أطفال واحنا مع بعض، افترقنا في الكليات، واجتهدت شوية في الدراسة، فأفادتني في الحصول على فرصة لتحضير

الماجستير والدكتوراة في جامعة (كامبريدج) في إنجلترا، ولسه راجع بقالي كم أسبوع.

قال: وانت اتعينت ولا لسه يا دكتور.

قلت: آه الحمد لله، اتعينت في جامعة القاهرة.

قال: ما شاء الله، مش بيختاروا إلا الناس المميزة.

قلت: ولا مميزين ولا حاجة، جواب التعيين بس هو اللي جالي هناك، إتعرض عليَّا فرصة في إنجلترا لكن أنا حابب أكون هنا، المشكلة في المشوار هيكون صعب، ولسه مخدتش قرار الحقيقة.. هستقر هناك ولا هنا، ولا هقضيها رايح جاي كل يوم.

قال: شكلك كدا مش مبسوط.

قلت: بالعكس أنا سعيد جدًّا إني أخيرًا هيكون ليَّا دور في تنمية الفكر لدى الشباب والتدريس عمومًا.

هنا طرق الباب، ودخل عسكري يحمل صينية، بها كوبان من الشاي وآخران من المياه، وضع الشاي والمياه على المكتب، فشكره ماهر، وخرج.

قال: كنت بتقول التدريس ماله؟!

قلت: التدريس مهنة صعبة جدًّا ومسئولية.

قال وهو يضحك: ياخي إحمد ربنا على الأقل، مش هتتعامل مع مجرمين. ضحكتُ وقلت: الله يكون في عونك.

قال: أديك شايف اللي بيحصل في البلد.

قلت: وإيه وجهة نظرك في اللي بيحصل دا يا ماهر بيه؟

قال: بغض النظر عن بيه وباشا وحضرتك اللي بتقولهالي دي، وإن آن الأوان إننا نشيل التكاليف، ولاإنت بقى يا دكتور مش عايزنا نكون أصدقاء.

قلت: يا خبر! دا شرف ليا.

قال: قول يا ماهر بس، من غير ألقاب.

قلت: هحاول يا ماهر بي... نظر لي فقلت: يا ماهر. وضحكنا.

قلت: مقولتش رأيك برضه!

قال: في النداهة؟!

قلت: إحنا بنسمع عنها من صغرنا، لكن محدش شافها، وهل هي حقيقة ولا كذب؟! الله أعلم.

قال: أنا عن نفسي كنت الأول مقتنع إن كل حاجة ليها سبب، وبيكون ليها تفسير علمي، وكنت شاكك إن فيه قاتل ذكي، بيستخدم أسلوب جديد؛ لأن طريقة القتل واحدة، لكن لما بحثت في الموضوع.. مفيش رابط بين الضحايا، وكل الجثث غريبة عن البلد، لكن اللي حصل مع الغفير ملوش تفسير، أنا طلعته بنفسي من البئر، لو حد كان حكالي مكنتش هصدق.

قلت: سمعت بالموضوع ده، وهو عامل إيه دلوقتي؟!

قال: هو في إجازة دلوقتى، لغاية ما يقوم بالسلامة ويتعافي جسديًّا، مفيهوش حاجة، لكن دائمًا شارد الذهن، ولا بياكل ولا بيشرب، وكأنه مش موجود.

قلت: في دكتور شافه؟

قال: أول ما طلعناه من البئر وديته المستشفى.

قلت: معلش ممكن تحكيلي من الأول عن اللي حصل؟

قال: بعد ما تركتكم في تلك الليلة ذهبت إلى الخفير الثاني زميله، وجدته واقفًا، وكان مرعوبًا، ولكنه اطمئن حين رانا، وقال لي: ماهر باشا!

قلت له: إيه اللي حصل يا عم إبراهيم؟

قال: كنت واقف في الخدمة في المكان اللي حضرتك قولتلي عليه.

قلت: إيه اللي حصل يا عم إبراهيم؟

قال: عبد الصمد النداهة ندهته!

قلت له: نعم.

قال: يا بيه زي ما بقولك كدا، إحنا واقفين، وكنت شايفه من مكاني في أول الليل، كان كويس خالص، والساعة واحدة إلا.. لقيته زي ما يكون بيكلم حد في الترعة، ناديت عليه مردش عليّا، ومرة واحدة لقيته بيصرخ، جريت عليه، ضرب عيار نار في الترعة، وبمسكه دفعني بقوة، ومش عارف هو جاب القوة دي كلها منين، وكان لا شايفني ولا سامعني، وجري ناحية طريق الساقية المهجورة.

قلت له: يعني هو هناك دلوقتي؟

قال: معرفش يا بيه، اللهم احفظنا.

قلت: لازم نلحقه، كلمت المركز يبعتولي قوة حالًا، فبعتولي عربية تانية، فيها أربع غفراء وثلاثة عساكر، وكان العمدة جه هو والغفراء بتوعه، وطلعت على الساقية، نوّرنا الكشافات اللي معانا، وبحثنا حوالين الساقية في الأراضي، لكن مفيش حد، فضلنا ننادي عليه لكن برضه مفيش فايدة، وكنا خلاص هنرجع، قربت ناحية البئر سمعت همسات همس فقط، أشرت للعساكر بنور الكشاف أن يصمتوا، ويأتوا إليَّ، واقتربت من البئر أكثر، والرجالة لفّوا حوالين البئر، ووجهنا كل الإضاءة داخل البئر، لقيناه جوا البئر واقف في وسط المياه، ولكن دون حركة، ندهت عليه لم يرد، بيني وبينك أنا شعرت وقتها بخوفٍ شديدٍ، لكن لازم ننقذه، كنت هقفز في البئر.. الغفراء والعساكر مسكوني ومنعوني إني أنزل، الموضوع كان مخيف.

قلت: طبعًا مخيف، لكن خرجتوه إزاي؟!

قال: لكنإنت مهتم بالموضوع دا أوي كدا ليه؟!

قلت: لأن الموضوع ده واحنا طول عمرنا نسمع عنه، وكنا نسمع عن الناس اللي بتاخدهم النداهة، والطريقة متغيرتش على ما أظن، يلاقوا جثته في الترعة، أو يتجنن على ما كنا بنسمع، لكن من يوم ما رجعت ثلاثة حالات قتل أو أكثر!

قال: تأكد أننا لم نصمت، أنا كنت مهتم زيك كدا في الأول، لكن موصلناش لأي حاجة، واللي أنا شوفته أكدلي إن اللي بيحصل ملوش تفسير!

قلت: إنت شفت حاجة؟!

قال: لما قربت من البئر.. كنت سامع صوت بنت بتبكي.. ولما وجهت الإضاءة مرة واحدة جوا البير مكنش عبد الصمد لوحده.. للحظة واحدة.... رأيتها.

قلت: من هي؟

قال: لا أعلم رأيت فتاة داخل البئر لمدة لحظة، واختفت في غمضة عين، الدم نشف في عروقي، لكن تمالكت نفسي، وثلاثة رجالة نزلوا ورا بعض، وحملوه وإحنا طلعناه... الغريبة إنه لم يقاوم، وأخذناه وذهبنا إلى المستشفى، لكني واثق من اللي شوفته، ولما سألت العساكر إن حد فيهم سمع أو شاف حاجة؟! كلهم لا شافوا ولا سمعوا.... قلت: وقتها ممكن توتر الأعصاب والرعب يكون أثار خيالي.

قلت: الحمد لله إنك بخير، وربنا يجزيك خير على إنقاذك للمسكين دا، انكتبله عمر جديد، لكن ليه مقولتش لرجالتك على اللي شوفته؟!

قال: يا أحمد، إحنا شغلنا نطمئن الناس ونحميهم، مش نخوفهم.

قلت: على كدا الموضوع صحيح إن فيه نداهة، مش أسطورة.

أومأ برأسه بأنه لا يعرف، ولكنه لم ينفِ أيضًا، بمعنًى آخر: أنه يعرف أن هناك فتاةً تجول في وسط الحقول وتقتل الرجال فقط، لكن.. لماذا الرجال؟! لكني أعلم أكثر بحكم الدراسة للتاريخ البشري والوراثة البشرية، ومن حكم دراستي لدي ذاكرة جيدة، وكمية هائلة من المعلومات، التي تشمل قصصًا وأحداثًا تاريخية مشابهة؛ من تخصصي علم الإنسان ودراسة الأحياء بشكل عام؛ لأنه يُنظر إلى الخلية في علم الأحياء عمومًا باعتبارها وحدة الحياة الأساسية، والجين باعتباره وحدة التوريث الأساسية، والتطور باعتباره المُحرّك الذي يوجد الأنواع الجديدة. ومن المفهوم أيضًا في علم الأحياء في الوقت الحاضر أنّ جميع الكائنات الحيّة تبقى على قيد الحياة عن طريق استهلاك وتحويل الطاقة، إذًا كيف تعيش هذه الفتاة لو افترضنا أنها حية؛ إذًا فهي..... وبدأت الفكرة تدور برأسي.

قلت: أنا سمعت يا ماهر إن مفيش حد بينجي منها، ولو الغفير عبد الصمد كويس نقدر نتكلم معاه، ويحكيلنا اللي شافه.

قال ماهر: حاولت معاه، لكن شارد الذهن تمامًا، ولم أستطع أن أخرج منه بمعلومة واحدة.

ومع غروب الشمس وقرب أذان المغرب؛ بدأ الظلام يخيم على البلدة فاستأذنت.

قلت لماهر: متنساش يوم الخميس.

قال: أكيد، هكون أول الحاضرين، إن شاء الله.

قلت: ماشي، عن إذنك.

قال: مع ألف سلامة.

خرجت وأنا أفكر فيما حدث، وكل ما سمعته، وما استنتجته؛ لماذا هؤلاء الناس.. ما ذنبهم؟! امتطيت حصاني وذهبت إلى البيت، وكانت أمي وأخواتي جالسين بالخارج أمام البيت، ناحية الفرن البلدي في الطراوة.

قالت أمي: بسيوني جالك هنا يا حبيبي.

قلت: إمتي؟!

قالت: بعد العصر يدوب خرجت.

قلت: هروحله لم أره منذ يومين.

قالت: متتأخرش يا أحمد.

قلت: حاضر.

تركت حصاني وتمشيت إلى منزل بسيوني، ليس بعيدًا عن بيتنا، ناديت عليه فخرج.

قلت: فينك يا بسيوني؟!

قال: إنت اللي فين، أنا رحتلك البيت، سألت عليك الحاجة؛ قالت: إنك خرجت.

قلت: أيوه، كنت في المركز.

قال: فيه حاجة ولا إيه؟!

قلت: لا مفيش، كنت بعزم الضابط ماهر على حضور الشبكة.

قال: آه، وأنا آخر من يعلم!

قلت: منا مبلغك من قبل ما أروح يا بسيوني، يبقى بذكائك كدا أكيد هيكون فيه شبكة، وكنت المفروض تسأل!

قال: بعد اللي حصل الجماعة عايزني أقضي الإجازة في البيت، مخرجش، خايفين أحسن اتنده.

طبعًا لم أبلغه بما أعرف.

قلت: معلش الحرص حلو برضه.

قال: تعالى ندخل نشرب شاي أو عصير.

قلت: لا شكرًا، الوقت ليل، والجماعة مأكلوش حاجة لغاية دلوقتي، في انتظاري، المهم الشبكة الخميس، إن شاء الله.

قال: ألف مبروك يا صاحبي. وعانقني.

قلت: عقبالك، نفرح بيك، إن شاء الله.

قال: تاني؟! لو مراتي سمعتك هتبقى ليلة مش هتعدي.

قلت: آه يا جبان. وضحكنا.

قال: جبان جبان بس أعيش، تشجعإنت وورينا شطارتك.

قلت بمرح: إن شاء الله، نتجوز الأول ى الأول وبعدين نشوف موضوع الثانية دا. واستأذنت، وقلت له: في انتظارك.

قال: بكرة الصبح هجيلك.

قلت: في انتظارك، بس مش بدري يا بسيوني؛ علشان هكون نايم.

قال: حاضر.

قلت في نفسي: متى سأذهب لأستلم وظيفتي حتى الآن لم أنفذ قرار التعيين، أمامي شهر قبل أن يلغى التعيين وأُستبعد، عمومًا ما زال أمامي وقت لأنتهي من الشبكة أولًا ثم أذهب، إن شاء الله، كل هذا كنت أفكر فيه، وأنا عائد إلى البيت أذن المؤذن، ووجدت عمي علي -جاري الطيب- جالسًا أمام بيته، سلمت عليه.

قال: مش هتصلي؟!

قلت: أنا سأذهب للمسجد، ولكن سأتوضأ أولًا في البيت.

قال: هيّا، أسرع، سأنتظرك.

توضأت وذهبنا إلى المسجد، صلينا وخرجنا نتمشى عائدين للبيت

قلت: عمي علي!

قال: إيه يا أحمد؟

قلت: هو زمان كان فيه نداهة والحاجات اللي بنسمع عنها دي؟!

قال: لا يابني، وإحنا صغيرين مكنش فيه حاجة من دي، كنا نسمع عن العفاريت والحاجات دي، لكن مكنش حد بيشوف حاجة.

قلت: يعني مكنش فيه حد بيتنده، والجثث والحاجات دي!

قال: الموضوع ده بدأ من قبل ما تتولد إنت، بدأت حاجات من دي تظهر، والناس كانوا بيقولوا: عفاريت، وسموها (النداهة)؛ لأنها اللي كان بينزل الغيط بالليل كان بيسمع واحدة بتنادي عليه، لكن الله أعلم يا بني، أنا عن نفسي مشوفتش بعيني غير اليومين دول، بقت كتيرة، الأول كان كل كام سنة لما كانت تظهر، وخصوصًا في موسم الذرة، ومحدش عارف إيه السبب؛ لأن الناس مكنوش مصدقين بوجودها، ربنا يحفظنا.
أومأت برأسي.. قال: اتفضل يا أحمد. شكرته وذهبت إلى بيتي، ودخلت فوجدت أمي وإخوتي في انتظاري كالعادة، جلسنا مع بعضنا نتبادل الأحاديث واطمأننت عليهم وعلى أدهم؛ لأني لم أره، وتكلمنا عن أحوال البلد والفرح والحاجات المطلوبة، وأشياء من هذا القبيل، وانتهينا من تناول الطعام؛ كان الناس وقتها ملتزمين بثلاث وجبات: فطار، وغداء، وعشاء، حتى وقت العشاء. أديت صلاتي مع عمي علي، وقابلت بسيوني، واتمشينا شوية ودردشنا، ولم تكن لي رغبة في العودة للبيت، الآن الموضوع شغل حيّز لا بأس به من تفكيريأ وأريد أن أحلل الموضوع من وجهة نظر العلم، أنا واثق أن هناك تفسيرًا علميًّا ودينيًّا لما يحدث، وبسيوني كان قلقًا وخائفًا حتى الساعة العاشرة، وصمّم أن يعود لبيته، الوقت قد تأخر؛ فعدنا، عاد بسيوني إلى بيته، وأنا أيضا وجدت أمي وراضية في انتظاري، والقلق ظاهر على وجوههم.
قالت أمي: إيه اللي أخرك يا أحمد لغاية دلوقتي، دا إسمه كلام؟!

قالت راضية: قلقتنا عليك ياحمد!

قلت: الوقت لسه بدري يا جماعة، وبعدين أنا لست متعودًا على هذه الحبسة.

قالت أمي: لازم تتعود يا حبيبي، وإنت هتخرج تروح فين دلوقتي؟!

قلت: لا، مش هخرج دلوقتي طبعًا، أنا بكلمك على أن الساعة عشرة، مش متأخر ولا حاجة، لكن دلوقتي مفيش مكان أروحه طبعًا.

قالت: اللي إنت عايزة يا حبيبي اعمله، إحنا خايفين عليك؛ إنت عارف ظروف البلد.

قلت: يادي ظروف البلد اللي مش هنخلص منها، وعمومًا متخافوش وادخلوا ناموا.

ثم دخلوا ودخلت غرفتي، قرأت بعض الكتب، أراجع ما درسته، حتى كانت الساعة الثانية عشرة، وانتابتني رغبة ملحة في الخروج؛ لكي أشم الهواء النقي ورائحة البرودة في الهواء، التي لطالما أحببتها، كنت أتلذذ بهذا الهواء البارد حين يدخل في صدري وله رائحة جميلة، وكل عشاق الشتاء يعرفون ما أقول جيدًا، فخرجت.

قلت: سأجلس أمام الباب فقط، ولكن لروعة الهواء حدثتني نفسي أتمشى فمشيت وكانت الساعة الواحدة صباحًا، وأثناء مشيي وصلت إلى المزلقان، والسكة الحديد في بلدنا تمر من فوق الترعة القديمة الممتدة إلى طريق الساقية المهجورة، وبجوار السكة الحديد طريق

السيارات المتجه إلى البلاد الأخرى، ولكن ليلًا لا تجد سيارة واحدة تسير عليه إلا إن كان أحدهم قد تأخر في مشوار ما ويمر منه؛ لأنه طريق رئيسي، وكنت أحب هذا المكان الرائع، وجلست قليلًا، والترعة أمامي والسكة الحديد خلفها ويليها الطريق، كنت أراهم جميعًا، كنت أستمتع بهذا الجو المنعش، ولكنه مرعب لأشخاص آخرين، وفجأة وكأنه ظهر من العدم.. كان رجل يقف على شط الترعة، وهناك مسافة بيني وبينه، لكني لا أراه جيدًا، والرؤية منعدمة في هذا الوقت إلا ما كان يوفره بدر القمر من رؤية، وبدون ترددٍ؛ قلت: من هذا الرجل؟ وماذا يفعل في هذا الوقت؟ ومن أين أتى؟ ومن هو؟! أسئلة كثيرة دارت في ذهني.

حين اقتربت منه رأيته، وكان هو ذلك الشاب مصطفى صديق أخي أدهم، ناديت عليه، كان شاردَ الذهن تمامًا، ناديت عليه مرةً أخرى، وأنا أقترب منه نظر تُجاهي نظرةً غريبة لم أفهمها، وقفز في الترعة، وصلت إليه مسرعًا، وقفزت وراءه، وأنا أنادي عليه: "مصطفى"، مسكته من جلبابه، وكان هناك شيءٌ يسحبه للأسفل، وسمعت صرخةً، ليست صرخة مصطفى! إنها صرخة فتاة.. التفتُ حولي لا أرى شيئًا، قرأت بعض الآيات، وكانت قدمي راسيةً على الأرض في قلب الطين، وما زلت أمسك بمصطفى؛ فالترعة ليست عميقة، المياه تغطي صدري فقط، ومصطفى تحت الماء، وبعد قراءتي لآيات من القرآن بصوتٍ عالٍ، وإذ بشيءٍ كان يسحبه للأسفل قد تركه، وحينها استطعت أن أسحبه حتى

أخرجته من الترعة، وضعته على الشط، لم يكن يتنفس، وكنت أعلم بعض حركات الإنعاش، وضعت يدي على صدره، وعاد صوت الفتاة من جديد، التفت حولي لا أرى شيئًا، تحول الصراخ إلى ضحك... ومن الضحك لبكاءٍ، وأنا ألتفت أبحث عنها لا يوجد شيءٌ، التفت اتِّجاه الصوت، فإذ بالصوت يأتيني من ناحية أخرى حتى استقر في قلب الترعة، كانت تقف في وسط الترعة، وتشاور بيدها: تعالى. وصوتها ازداد طنينًا في رأسي، هذه الفتاة لا تتكلم، صوتها في رأسي فقط. نظرت إليها، واختفت أمام ناظري، ظللت أتمتم في سري ببعض الآيات القرآنية التي علمني إياها الشيخ محمود حين تكلمنا في هذا الموضوع، وكانت كما وصفها لي تمامًا، وكأنه رآها من قبل، إنها هي... "النداهة"!!!

الآن لا آراها، لكن أسمع همسها فقط، رجعت إلى الوراء، وحملت مصطفى على كتفي، ومشيت وكان هناك شخصٌ يقذف بالحجر في مياة الترعة، كان الصوت شديدًا، والبر ينهار، وصخرٌ كبيرٌ ينزل في المياه، حتى ابتعدت عن المكان، لكني أشعر بها، ذهبت بمصطفى إلى بيتي، فزعت أمي وأختي، وأخذت أُوقِظُ مصطفى، وجلبت أمي غطاءً لففت به مصطفى من البرد، وبدّلت ملابسي، وأمي تطرح عليَّ وابلٌ من الأسئلة، وأنا لا أركز.. كنت قلقًا جدًّا على هذا الشاب، وقاطعتها.

قلت: هقولك كل حاجة، بس نلحق الراجل الأول، لازم دكتور يشوفه.

قالت أمي: مفيش حل غير المستشفى، بيكون فيها دكتور نبطشي، أخرجت حصاني، ورفعت مصطفى عليه بمساعدة أمي وأختي، وركبت وأمامي مصطفى فاقد الوعي، وأنا أمسك به ألا يقع، أتعبني كثيرًا، وكان ثقيلًا جدًّا.

قلت لأمي وأختي: أُدخلوا واقفلوا الباب عليكم. ولم أذهب إلا بعد ما قفلت الباب.

ذهبت في طريقي، وكان (قيصر) يتبعني، وطريق المستشفى من قلب البلد، ولكن في النهاية! سنذهب من طريق الترعة القديمة الطريق من هناك سهل ومختصر، لم أكن أفكر في أي شيء غير إنقاذ هذا الرجل، وصلت إلى طريق الترعة، رأيتها على الضفة الثانية من الترعة، كانت جا لسه تنظر فقط، كلما مشيت كانت تأتي أمام عيني، حتى كأني أراها في كل مكانٍ حولي، وكان (قيصر) يسبقني وينبح عليها بكل ما أُوتي من قوة، وأنا أتمتم بآياتٍ قرآنيةٍ حافظةٍ، وانتبهت لهمساتها في رأسي، لا أفهم ماذا تقول، فهي بعيدة عني ولكني أسمع همسها، وكأنها تطلق صيحاتها في أذني، كأنها بجواري، بصوتٍ مُحبّبٍ للسمع، وكلبي لم يصمت من النباح، وكأنه يرى شيطأنا حتى وصلت إلى المستشفى.

نزلت وحملت مصطفى ودخلت من بوابة حديد قديمة وكلاها البرومة، ومكسور فيها بعض الحديد المصدي، ودخلت.. فكان المدخل عبارة عن درجتين من السلم، وبعض القطط السوداء تجدها أمامك، وحينما

تدخل الاستقبال تراه فارغًا، لا يوجد أحد فيه، وأخذت أنادي بصوتٍ عالٍ: "هل يوجد أحد هنا؟!" لا أحد يردّ، وضعت مصطفى جانبًا على بعض الكراسي القديمة، ولا يزال فاقدًا للوعي، وأخذت أفتح الغرفَ غرفةً غرفةً، لا يوجد أحد حتى آخر غرفةٍ مكتوبٌ عليها قسمُ العظام.

فتحت الباب فوجدت شخصًا نائمًا، أيقظته فقام مفزوعًا، قلت له: أريد إسعاف هذا الشاب فحالته خطرة. وسألته: أين الدكتور؟

قال: الدكتور في غرفته.

قلت له: أين تلك الغرفة؟ قال: هنا، وأشار لي على مكان الغرفة آخر الممر يمين، في غرفة الجراحة الخالية من أي شيءٍ يخص الجراحة، فتحت باب المكتب، كان مغلقًا من الداخل، طرقته؛ فتح الدكتور باب الغرفة، فجاء معي، وحملنا مصطفى، وضعناهعلى سريرٍ مُتهالكٍ، وأخرج الطبيب سماعةً ووضعها على صدر مصطفى؛ ليسمع نبضاته، ويتفحصه.

قال: ماذا حدث؟!

قلت: كان غريقًا في الترعة، وعندما أخرجته كان هكذا على هذه الحالة التي تراها، لا أعلم ماذا حدث له؟!

نظر إليَّ الطبيب نظراتٍ يملأها الرعب، شعرت به!

قال التمرجي: يا حفيظ يارب.

قلت: خير يا دكتور؟!

قال التمرجي: دا مندوه!

فنهره الطبيب وطلب منه أن يصمت، ويبطل تخاريف.

قال: صدمة عصبية أدت إلى الإغماء، ودا اللي ظاهر أمامي، لكن في العادة.... وصمت.

قلت: ماذا؟

قال: هو محظوظ إنك لحقته، لازم نبلغ المركز.

وأشار للتمرجي بأن يتصل بالمركز، وأعطى مصطفى إبرةً مملؤةً بمسحوقٍ أبيضَ بعد فكها ببعض الماء، لم أسال طبعًا، وبعد عدة دقائق بدأ مصطفى يستفيق، فنظر للسقف، وكان شارد الذهن تمامًا، ظللنا نتكلم معه ولكنه لا يردّ تقريبًا، لا يسمعنا أصلًا، ولكن عينه مفتوحة، فاقترح عليَّ الدكتور فاروق أن أتركه يستريح، وجلسنا بجواره حتى جاء ماهر ومعه بعض العساكر.

قال: السلام عليكم، إزيك يا دكتور فاروق؟

قال: إزيك يا ماهر بيه؟

قال: خير ياحمد؟!

قلت: الحمد لله، دا شاب اسمه مصطفى.

قال: إيه اللي حصل؟

قلت: كنت قاعدًا على شطّ الترعة، وفجأة قفز في الترعة فقفزت وراءه، وأخرجته، وأتيت به إلى هنا.

قال باندهاش وهو غاضب: وإنت كنت بتعمل إيه على شط الترعة في الوقت دا؟!

قلت: كنت جالسًا فقط.

قال: إنت بتهزر!

قلت: مش وقته دلوقتي يا ماهر، هحكيلك كل حاجة بعدين.

قال للطبيب: وهو عامل إيه دلوقتي يا دكتور؟

قال: هو كويس زي اللي قبله، لكن المرة دي أحسن من اللي فاتت؛ لأنه إتلحق بسرعة، ولكن نفس الأعراض اللي كانت على الغفير. نظر إليَّ ماهر.

قال: روّح إنت يا أحمد، واحنا هنهتم بيه، ولا استنى إركب معايا؛ هوصلك البيت.

قلت: لا أنا معايا الحصان.

قال: منا شفته هو والكلب وأنا داخل.

قلت: آه دول أصحابي.

قال: طيب روّحإنت وهنهتم بالموضوع، إنت عملت اللي عليك.

قلت: مش هنبلغ أهله؟!

قال الطبيب: أنا شايف إن مفيش داعي يفضل هنا، يروح بيته أحسن هناك أهله هيهتموا بيه، هو محتاج رعاية مش هيلاقيها هنا أكيد.

قال ماهر: هو بقى كويس؟

قال: مع الراحة سيعود لطبيعته.

قال ماهر: يعني إيه يا دكتور؟

قال فاروق: هكتبله شوية كلوكوز علشان شكله كدا هيفضل فترة من غير أكل. أشار ماهر للعساكر فحملوه وخرجنا.

قال ماهر لي: اذهب إنت للبيت.

قلت: لن أذهب قبل أن أطمأن عليه. وذهبت وراءهم راكبا حصاني، أذن الفجر ونحن في الطريق، ولما وصلنا وجدنا زوجته وأدهم وزوجته وبعض الجيران في الشارع أمام بيته، حملوا الرجل وأدخلوه إلى الغرفة، وأخذت زوجته تولول؛ فطمأنها ماهر، وجاء أدهم إليَّ.

قال: مالك ياحمد فيك حاجة؟

قلت: لا اطّمن يا أدهم، أنا كويس، الحمد لله.

قال: أمّال إيه اللي حصل، ولقيتم مصطفى فين، وإيه اللي خرجك من البيت ياحمد، وأمك وأختك بخير؟!

قلت: أمي! تلاقيهم قلقانين لكن اطمئن الحمد لله كويسين، وبخير كلنا، وأنا هروح علشان أطمنهم، وبكره هحكيلك كل حاجة.

كان مصطفى نائمًا، لا أدري: هل هو نائم أم ماذا؟! هل يعيي ما يحدث، لا أظن ذلك. فاستأذن ماهر بعد أن أعطاهم بعض النصائح للحفاظ على صحته، وخرج وخرجت أنا أيضًا.

قال لي: ممكن تمرّ عليا بكره نتكلم شوية.

قلت: حاضر، إمتى؟

قال: هكون موجود بعد العصر.

قلت: حاضر، سلام.

قال: سلام، خد بالك من نفسك.

قلت: خلّيها على الله، مع السلامة.

ركب سيارته وامتطيت حصاني، وذهبت إلى البيت، كان الباب مغلقًا كما قلت لهم، ولما سمعوا صهيل (بحر) ونباح (قيصر) فتح الباب، وخرجت أمي.

قالت: إيه يا حبيبي، إنت بخير؟!

قلت: الحمد لله.

كان الجو باردًا، ولكن داخل الدار كان الجو دافئًا بعض الشيء؛ فشعرت أني أصبت بالبرد أو بالإنفلونزا، وأحسست بحرارةٍ عاليةٍ في جسدي، ولم أحكِ مع أمي، لا أعرف ماذا أقول لها، ولما رأت مني مزيدًا من الصمت وضعت يدها على جبيني.

قالت: حرارتك عالية، ارتاح يا حبيبي.

بدون أن أتكلم دخلت لأنام، كنت مُتعبًا جدًّا، جمعت أمي المزيد من الغطاء ووضعته فوقي. ثم نمت نومًا عميقًا، كنت أشعر بالبرد يَسري في جسدي، وكنت أفيق بين حينٍ وآخر.. أرى أمي بجانبي تضع على جبيني قماشةً بها مياهٌ باردةٌ لتطرد السخونية من جسدي، وهذه الطريقة

فعالة حقًّا.. وفي الساعة العاشرة صباحًا.. جاء بسيوني بعدما انتشر الخبر في البلدة، وجاء أعمامي، وكانت أول من رأيتها حين فتحت عيني "رقية" وأمي وإخوتي في الغرفة، وكان يجلس على الكنبة داخل الغرفة بسيوني وأخي أدهم، وفي الصالة على الحصيرة -وهذه لمن لا يعرفها كانت مثل السجاد بالنسبة إلينا- كان يجلس أعمامي والحاج جمال والحاج علي جاري، و.. مَنْ؟! هذه فتاة لا أعرفها، لماذا شكلها هكذا، نظرتها مرعبة، وثابتة لا تتحرك، وبعض الناس لا أعرفهم، لم أكن أستعدت وعيي، كنت أشعر أني أهلوس، وغبت مرةً أخرى عن الواقع. كنت أسمع أصواتًا.. لا ليست أصواتًا بل همسات تقول: انقذني... أو... ممكن أن تكون هلوسة، وصورتها أمام عيني، تنظر وتضحك، وأحيأنا تبكي، كانت هي هذه الفتاة المجهولة. كنت أشعر أني في مكان ما لا أعرفه، وشعرت بشيء دخل في ذراعي، سائل ما.. وغبت في المجهول؛ أظن أنني غفوت.. كنت حين أستيقظ أسمع صوت تلاوة قرآنية، كل ذلك من أجل الانفلونزا، أنتم تبالغون، صور مشوشة تأتي في رأسي، لكني أقاوم، وفتحت عيني.. وجدت مَن تقول لي:

- لقد نجوت هذه المرة، توقف عن البحث.

قلت: من ماذا نجوت؟ وأي بحث؟ ومنإنت؟ كانت فتاة فائقة الجمال، حسنةٌ مميزة في رقبتها، لقد رأيتها من قبل، لا أعلم أين؟! عندما دققت النظر إلى وجهها رأيت خربشات، وكأنها خربشات نمر، أعلم يقينًا أن هذه

هلوسات التعب، أخذت أقاوم، أصوات كثيرة تعلو في رأسي، كاد رأسي أن ينفجر.. آيات قرآنية.. صراخ.. آيات قرآنية.. صراخ.. تحولت الفتاة الحسناء إلى شيء قبيح، مخالبها قبيحة.

قالت: أنا أنثى الشيطان، أريدك لي زوجًا.

قلت: من أنتي؟!!

قالت: ستأتي إلي ليلًا، سأنتظرك لتنزل معي إلى عالمي، إنت تستحق كثيرًا؛ إما أن تكون زوجي، وإلا سأقلب حياتك جحيمًا.

هجمت عليَّ فجأةً وغرزت مخالبها في ذراعي، استفقت وأنا أوجه لها لكمةً، وقد جلست في موضعي، رأيت علامات ذهول في وجوه الموجودين في الغرفة، كان الصمت سائدًا للحظات، بعد أن استوعبوا أني في كامل وعيي نظرت حولي.. وجدت الشيخ محمود وأمي وراضية وليلى ورقية وأعمامي وبسيوني وماهر أيضًا، وسرنجة بإبرة مغروسة في ذراعي.

قال أدهم: أخيرًا فقت يا راجل يا طيب، الحمد لله.

قالت أمي: أحمد يا حبيبي، سمعني؟

قلت: أيوه يا أمي، سمعك كويس.

سحبت رقية الإبرة من ذراعي، وجمل كثيرة قيلت من الموجودين؛ من يقول: حمدللّه بالسلامة. ومنهم: بركة إنك بخير. وقال الشيخ محمود: قلقتني عليك يا أستاذ أحمد. كنت أنظر فقط.

قلت: أنا الحمدلله بخير والله يا جماعة.. هو إيه اللي حصل... والساعة كام دلوقتي؟

قال ماهر: إيه يابو حميد، طمني عليك.

قلت: الحمد لله يا ماهر، بخير.. إيه اللي حصل؟

قال عمي: محصلش حاجة يابني، تعبت شوية وكنا بنطّمن عليك.

قلت: آه! تلاقي الإنفلونزا ساعة ما نزلت الترعة.. قلت: وكأني تذكرت شيئًا.. الترعة.. مصطفى عامل إيه؟!

قال أدهم: بخير يا حبيبي، اطّمن وقومإنت بالسلامة الأول.

قلت: الحمد لله، كنت أود أن أقوم لكنهم منعوني.

- جسمي مكسر، عايز أقوم.

قالوا: انتظر فقط، التقط أنفاسك، وبعدين اِفعل ما تريد.

قلت: مصطفى كويس؟!

قال الشيخ محمود: اطّمن ياحمد، أنا كنت عنده وهو كويس.

قلت: الحمد لله. قال: إيه آخر حاجة إنت فاكرها؟

قلت في نفسي: ما هذا السؤال! أذكر جيدًا الآن مصطفى والترعة وال.... ولا أعرف لماذا قلت لهم: فيه بنت كانت واقفة هنا بنت مين دي؟!

قال: متى؟!

قلت لما فتحت عيني: كانت واقفةً هنا كلمتني.. وقالت كلام ممم إيه مم لا أذكر الآن.

قالت أمي وهي تبكي: إنت إيه اللي ودّاك ناحية الترعة بالليل ياحمد، مش قولتلك متخرجش!

قال عمي: مش وقته دلوقتي يا حجة، المهم إنه قام بالسلامة.

قال أدهم: ياما إحنا نحمد ربنا إنه فاق، مفيش حد نجي منها قبل كدا نظرت إليه.

قلت: من مين؟!

صمت الجميع، بصَمْتهم يثيرون أعصابي.

قلت: من هذه الفتاة؟

قالت أمي: مفيش حد غريب جه هنا يا حبيبي غيرنا، صلّي على النبي، ووحّد الله.

قلت: لا إله إلا الله، عليه الصلاة والسلام، يمكن كانت هلوسة!

أفضل طريقة أتعامل معهم بها السكوت؛ لأني إن تكلمت لن يصدقوا حرفًا مما أقول، وسيظنون أني جننت، السكوت أفضل.

قال ماهر: حمد للّه على السلامة يا بطل.

قلت وأنا مبتسم: الله يسلمك، متشكر يا ماهر على زيارتك دي.

قال: إحنا أصحاب مفيش بينا الكلام ده، دا واجب، شد حيلك وقوم بالسلامة علشان نفرح بيك.

قلت: إن شاء الله، على ميعادنا بكرة.

قالت أمي: لا يابني، الشبكة اتأجلت شوية لغاية ما يقوم بالسلامة.

قلت: مين اللي قال كدا.. أنا الحمد لله بخير أهو.. الشبكة في ميعادها بكرة إن شاء الله.. أنا ليس لدي وقت للتأجيل؛ تعرفون ذلك جيدًا!

قال عمي جابر: خلاص يا جماعة ما دام بقى كويس مفيش داعي للتأجيل، علشان شغله برضه ميتعطلش عن كدا.

قالت أمي: يعني إيه بقى؟! أنا مليش كلمة خالص!

قال أدهم: ياما إنتي الخير والبركة، لكن الدكتور كويس أهو، الحمد لله، خلونا نفرح بقى.

قال عمي: يبقى الشبكة على ميعادها بكرة، ولسه كدا كدا مبلغناش حد إن الشبكة اتأجلت.. الناس كلها عارفة إن الخطوبة بكرة.. خلاص خير البر عاجله.

قالت رقية: حمد للّه على سلامتك ياحمد.

قلت وقد فرجت أساريري: إزيك إنتي يا رقية؟

قالت: لو لسه تعبان ارتاح ونأجل، أو نلبسها كدا وخلاص، مش مهم، أي حاجة علشان راحتك.

قلت: لا أنا بخير، الحمد لله.. عمي جمال فين؟

قالت: كان هنا ولسه ماشي من شوية.. راح الغيط وهييجي على هنا.

قلت: تمام إبقى بلغيه إننا على ميعادنا.

قالت أمي: يابني بلاش عناد، رقية مش هتطير!! فابتسمت.

قالت رقية: يوه ياماما منا اللي بقوله: نأجل. قالت: أُسكتي خالص، محدش بيسمع كلامي.

قال عمي عبد الحميد لرقية بابتسامة: شغل الحماوات بدأ أهو من دلوقتي يا رقية! فابتسمنا.

قالت رقية حتى تكسب رضا أمي: أمي تقول اللي هي عايزاه، أنا قابلة منها.

قال ماهر: خلاص يا جماعة، هستأذن أنا علشان عندي شغل.

قالت أمي: ربنا يكرمك يابني.

قلت: متنساش بكرة هستناك.

قال: إن شاء الله، هكون عندك.

قلت: إن شاء الله.

قال: حمد للّه على السلامة. وخرج.

قلت: أمي أنا جعان، عايز آكل.

قالت: أختك بتجيبلك يا حبيبي.

قال الشيخ محمود: طيب هستأذن أنا، حمد للّه على سلامتك.

وقام من مجلسه، وأشار لي أن أخرج معه؛ فخرجت معه.

قال: إنت كويس؟!

قلت: الحمد لله، بخير.

قال: لسه بتشوفها؟!

قلت: هي مين؟!

قال: إنت عارف.

قلت: مش فاهم!

قال: شفتها كام مرة؟

علمت عمّن يتكلم.

قلت: تقصد النداهة؟!

قال: بتشوفها في كل مكان؟

قلت: لا لم أرها إلا عندما نزلت الترعة ورا مصطفى.. وطول طريق المستشفى وأنا أراها.. لكن كنت بقرأ الآيات الحافظة.

قال: النهاردة شفتها؟!

قلت: مش فاكر.

قال: عمومًا إنت بقيت كويس، الحمد لله، لو حسيت بأي حاجة غريبة تعاللي المسجد أو البيت.

قلت: حاضر، هو فيه حاجة؟!

قال: أنا افتكرتك ممسوس، لكن الحمد لله مفيش حاجة، لكن خد بالك، لأنها اتغاظت منك؛ لأنك أنقذت مصطفى منها، ولم تستطع أن تقتله هي.

قلت: من هي؟ أيُّ نوعٍ من الجن هذه الملعونة؟

قال: إنها أنثى الشيطان، جنٌّ متوحش؛ يستدرج الرجال ويقتلهم، ويظهر في الأماكن الخالية، أو أماكن بها قتلى والعياذ بالله، يستخدم هيئة جسم القتيلة، ويتخذها مسكنًا لأغراضه، والجن أنواع كثيرة، وهذا النوع تحديدًا يستطيع أن يتشكل بأي شكلٍ، لكنّه ضعيفٌ أمام كلام الله.. لا يتحمل.

قلت: والحل؟! أ كيد لها حل علمي، أو ديني، أي حل؟

قال: الثوم والملح والمياه المقروء عليها، لن نصمت أكثر من ذلك، ولكني سأحتاجك معي.

قلت: إن شاء الله، الشبكة بكرة، نخلص الشبكة ونتشاور في الأمر.

قال: إن شاء الله.

استأذن وذهب، ودخلتُ الغرفة، ودخلتْ راضية بعد دقائق.

قالت بابتسامتها المحببة للنفس: حمد للّه على السلامة يا حبيبي.

قلت: الله يسلمك يا راضية. ووضعت صينية الطعام على السرير.

قلت: تسلم إيدك، إستني بقى هقوم أستحمّى الأول.

قالت أمي: كُل الأول، وبعدين إبقى استحمى براحتك.

كان أعمامي يتكلمون مع بعضهم في تؤدةٍ لا أفهم ما يقولون لأنني لا أسمع جيدًا حديثهم؛ لأنهم يتكلمون بصوتٍ منخفضٍ، أكلت، وأثناء الأكل تذكرت كل ما حدث، وبعد أن امتلأتْ معدتي من الطعام استحممت جيدًا.. وبدّلت ملابسي، وشعرت أني بخير حالٍ الآن. جلست

وكان الليل قد بدأ ينزل ستائره، ولم يتبقى غير رقية، وأدهم، وزوجته وأطفاله، الذين كانوا ينظرون إليَّ ويستحيون عندما أنظر إليهم، استأذن أدهم... قالت أمي لأدهم بأن يُوصل رقية في طريقه لبيتها. خرجت رقية معه، وأشارت لي؛ فأومأت برأسي أني بخير حالٍ، وكل دقيقتين تطمئن أمي عليَّ.. كنت أفكر، فتقطع تفكيري، تحسب أن شيئًا حدث لي، جلست معهم، وجلبت كتبي بجواري، أقرأ فيها، وأبدل وأراجع، كنت أختلس النظر إليهم؛ فأراهم ينظرون لي وكأنهم يراقبونني، نظراتٌ ذات معنًى. كانت أعينهم تغف.

قلت لهم: قوموا إلى غرفكم لترتاحوا.

قالت: لا يا حبيبي، إحنا قاعدين معاك شوية.

قلت: قومي يا أمي، أنا بخير، الحمد لله.

قالت: مش هتخرج؟!

قلت: مش هخرج، متقلقيش، هقعد أقرأ شوية وأنام.. يلّا يا راضية، وانتي كمان يا ليلى.

قالت ليلى: أنا مش جايلي نوم، هأقعد معاك؛ علشان لو احتاجت حاجة.

قلت: اسمعي الكلام، إنتي بتنامي على نفسك وانتي قاعدة!

قالت أمي: يلّا يا راضية، إنتي وليلى، اسمعوا الكلام. فدخلوا غرفتهم.

ودخلت غرفتي أنا أيضًا، جلست أقرأ حتى مللت فمارست هوايتي المفضلة الرسم، وظللت أرسم صورًا كثيرةً محفورةً في ذهني، أخرجتها

مرسومةً على الورق، رسمت صورة للفتاة الحسناء، ذات الحسنة على رقبتها، ألم أقل لك: إني بارع في الرسم، وصورة أخرى لفتاة قبيحة المنظر مخيفة وأسميتها "أنثى الشيطان"، وعاد صوت الهمس لرأسي مرةً أخرَى، ولكن هذه المرة كلام مفسر؛ صوت فتاة تقول: أنا في انتظارك ياحمد.

استعذت بالله، والصوت لا يزال في رأسي.

- تعالى، مستنياك.

- أعوذ بالله.

- ميعادنا عند الساقية.

وفجأةً وأنا جالس على مكتبي.. أخذت حوائط الغرفة تتلاشى.. وجدت نفسي جالسًا على شطِّ الترعة، في مكاني المفضل عند المزلقان.. المكان هادئ جدًّا.. والضباب كان يُخفي كل شيء، بالكاد أرى.. جاء القطار وكأنه يجري.. يأتي ويذهب بسرعة مذهلة وهو يتراقص على القضبان، وكأنه في عالم (ديزني)، وأنا أعلم أن القطارات لها مواعيد، ولكن هذا القطار غريبٌ حقًّا يُضيء من الأمام وكأن ألعابًا ناريةً في مقدمته.. تصعد وتلهو في الهواء مثل افتتاح المهرجان، إنه ينظر إليَّ! نعم، القطار له عينان، مرّ القطار، وهدأ المكان، يتسع الشارع ويضيق، جاءت سيارةٌ من العدم، بها أربعةُ أشخاصٍ وفتاة، كانت الفتاة تصرخ، دخلت السيارة في الحقول، قمت من مكاني وركضت ورائهم، كان الأرض مزروعة

محصول الذرة.. كان عالٍ جدًّا.. أوقفوا السيارة، ذهبت إلى هناك.. رأيت الفتاة مربوطةً، حملوها وذهبوا بها إلى الساقية وأنا أتبعهم؛ ماذا يفعل هؤلاء الحمقى؟! حتى كانوا أمامي مباشرة.

قال أحدهم: أهل البلد دي بيناموا من المغرب، بيخافوا من النداهة.... ويقهقهون بصوتٍ بغيضٍ.

قال الآخر: دا أنسب مكان.

أما الفتاة فكانت فاقدة الوعي، اقتربت منهم، وهجمت عليهم؛ لأنقذ الفتاة، ولكن هناك خطبٌ ما.. لا يروني.. وكأن ما يحدث أمامي فيلمًا.. عليَّ أن أشاهده فقط دون أي تدخلٍ.. حاولت أن أهجم عليهم مرةً أخرى، ولكن هناك حاجزٌ يفصل بيني وبينهم.. لا أستطيع تجاوزه.. وقفوا بجوار الساقية والبئر، فقال أحدهم للآخر: راقب الطريق.

- ممكن حد ييجي علينا.

قال الآخر وهو يمسك الفتاة: قلتلك مفيش حد بييجي هنا بالليل؛ لأنهم خايفين من النداهة.

مزقوا ملابس الفتاة واغتصبوها، تناوبوا على اغتصابها، فاقت الفتاة وغرزت أظافرها في عنق أحدهم، فخربشها واحد منهم في خدها، وقيدوها حتى أتم آخرهم جريمته، ثم أخرج مطواة فغرزها في بطن الفتاة حتى لفظت روحها وهي تقاومهم، وأصبحت الفتاة جثةً هامدةً بملابسها الممزقة، والدم يسيل منها، ثم دفنوها بجوار البئر وذهبوا،

وكأنهم لم يفعلوا شيئًا، كنت أحاول الوصول إليهم لكني لم أستطع، وتبدّل المشهد فجأةً! كانت الفتاة تقف في نفس المكان الذي تمت فيه الجريمة، كنت أرى ظهرها لكن كنت أعرفها من ملابسها، لم يكن هناك حاجزٌ بيننا هذه المرة، اقتربت منها بحذرٍ، التفتت تُجاهي كانت... رقية.. قلت وأنا مذهول: رقية؟!!

اقتربت بسرعة ناحيتها، لكنها خدشتني في ذراعي بأظافرها، رجعت للخلف بسرعة بصوت ضحكتها المرعب ووقعت في قلب البئر.

أثناء وقوعي استيقظت مفزوعًا قبل أن اصل إلى الأرض، وجدت نفسي في غرفتي، كنت نائمًا على مكتبي فوق الرسومات، استغفرت، كان قرآن الفجر قد بدأ، بعد ما التقطت انفاسي قمت لأتوضأ، رفعت كم التيشرت الذي ارتديه لأتوضأ، وجدت جُروحًا وكأنها آثارُ مخالب قطة لا أفهم.. هل هذا كان حلمًا أم واقعًا.. لا أدري؟!

إذًا هي تستطيع الوصول إليَّ في أحلامي أو بمعنًى أدق: "كوابيسي".

جلست أفكر قليلًا كي أتذكر الحلم كاملًا وأفسره... فتاة الساقية.. أنثى الشيطان.. ما هذا؟! يبدو أنني أقحمت نفسي في شيء لا أفهمه، لكن لفت انتباهي شيءٌ ما في هذا الحلم العجيب؛ هل هناك فتاتان أم واحدة؟!. إذا كانتا اثنتين فما علاقتهما ببعضهما.. كاد رأسي أن ينفجر، أكملت وضوئي وذهبت للصلاة، قابلت بسيوني وكثيرا من كبار السن -الذين دائمًا يحافظون على الصلاة في وقتها- فيقولون لي: حمد لله على سلامتك يا دكتور، وآخر بركة إنك بخير يابني... إلخ. وبعد خروجنا.

قال بسيوني: عامل إيه ياحمد؟

قلت: الحمد لله بخير.

قال: إيه اللي خرجك دلوقتي؟! كنت ارتاحت النهاردة.

قلت: أنا كويس، الحمد لله، هل هناك جديدٌ؟

قال: لا أبدًا، الجو هادي النهاردة، طمني عليك إنت صحتك عاملة إيه دلوقتي؟

قلت: الحمد لله، بتجيني كوابيس، خفيفة كدا.

قال: معلش.. المهم إنك بخير.. أنا قولتلك لما تسمع حاجة متطلعش لكن إنت عنيد ودماغك ناشفة. نظرت إليه بحدَّةٍ.

قلت: لولا أني معملتش زي أهل البلد كلهم مكنش زماني لحقت مصطفى!

قال: ربنا يجزيك خير يا صاحبي، وربنا يشفيه.

قلت: هو لسه تعبان.. فاق ولا لسه؟

- الشيخ محمود ذهب إليه كذا مرة، لكنه ما زال شارد الذهن.

قلت: والحل؟! أكيد فيه حل.. وفيه سبب للي بيحصل دا.

- أحمد ركز إنت في خطوبتك، وتروح بعدها تستلم شغلك، وبعدين إنت قبل ما تسافر كانت بتحصل حاجات من دي، وعمرك ما شغلت دماغك، اشمعنى المرة دي!

قلت: يعني إيه؟!

- يعني انتبه لنفسك، ومش كل حاجة بتحصل ليها تفسير.

نظرت اليه مُتعجبًا قلت: غيّرت رأيك يعني مش، إنت اللي كنت بتقول: دا حد بيقتل وكذا! كذا.. كذا! إيه اللي غيّر رأيك؟!

قال: أنا مكنتش فاهم، لكن دلوقتي فهمت، ومؤمن مائة بالمائة بوجودها.

قلت: بسيوني إيه اللي غيّر رأيك؟!

قال: اللي حصلك، واللي حصل لمصطفى، واللي بيحصل في البلد كلها.

قلت: فقط.

قال: أحمد يا صاحبي، مش كل حاجة بتحصل ليها تفسير، ومتمشيش ورا الصوت اللي راسك.

قلت: بسيوني! مفيش حاجة بتحصل من غير سبب، كل حاجة ليها تفسير، ولازم ألاقي سبب اللي بيحصل دا.. ليس عدلًا أن يبقى الناس جالسين في بيوتهم وهم خائفون هكذا.

قال: كفاية يا صاحبي، متفتحش علينا وعلى نفسك أبواب الجحيم.

نظرت إليه نظرةً ذات معنًى بابتسامةٍ ليس لها معنًى!!

- إنت لسه مفهمتش يا بسيوني، الباب مفتوح من زمان، وأنا أحاول إغلاقه للأبد!

قال: يا صاحبي، أنا خايف عليك.

قلت: خلّيها على الله يا صاحبي، لكن أنا واثق من اللي قولته. المهم لا تنسَ أن تحضر الشبكة، اليوم بعد صلاة العشاء، إن شاء الله.

قال: ألف مبروك يا حبيبي.

قلت: أنا كنت عاوز أعمل حاجة كويسة، وقاعدة حلوة، والشارع كله يتفرش نشارة خشب، لكن الجماعة لم يوافقوني.

قالوا: نقعد أمام البيت فقط، هنلبس الشبكة وخلاص، وفي الفرح افعل ما تريد.

- ما هو دا اللي ماشي في البلد كلها دلوقتى، فرعين إضاءة ملونة، وشوية نشارة خشب، ويجيبوا المطبلاتية (الفرقة)؛ يغنوا ويهيصوا شوية وخلاص.

قلت: عارف فيه برضه طعم حلو للارتباط والزواج.

قال: طبعًا، ولسه بقى الليلة الكبيرة! ربنا يتمملك على خير، إن شاء الله.

قلت: إن شاء الله شهرين كدا وندخل.

قال: مستعجلين كدا ليه؟!

قلت: لأ، أبدًا، مفيش داعي ننتظر سنة أو أكتر، المدة دي اتعملت علشان الشاب والبنت يفهموا بعض.. يدرسوا أخلاق بعض.. إنما رقية مش غريبة.. مش لسه هدرس أخلاقها وطباعها، وهي أيضًا تعرفني جيّدًا، وتعرف طباعي، وأنا عارف طباعها، فملهاش لازمة المدة تكون طويلة!

قال: دنتا دارس كل حاجة، وعامل حسابك على كل حاجة يا لئيم.

فابتسمت.

قلت: خير البر عاجله. فابتسم هو الآخر.

قال: إن شاء الله هجيلك بدري.

قلت: في انتظارك يا صديقي، مع السلامة.

قال: مع السلامة يا صديقي، أهم شيء تشيل من دماغك موضوع "النداهة" دا... لوحت له بيدي وذهبت.

كنت أفكر وأنا أمشي.. بسيوني لن يصدق ما يحدث لي؛ فهو لا يعرف ماذا قابلت في إنجلترا أثناء دراستي هذه، ليست المرة الأول ى.. ألم أحكِ له ما حدث؟! آه، لقد نسيت، لكني سأحكي له ربما بعد انتهائي من النداهة ربما.

بعد ما عدت إلى البيت أخذت أدون ما حدث؛ لأجمع كل الخيوط اللازمة، وظللت أكتب أفكارًا غير متناسقة، ولكن دون جدوي حتى مللت، تبًّا، لأتركَ كل هذا الهراء لليوم فقط، وبعد ذلك سأبحث في الموضوع جيّدًا وأفكر جيّدًا لأعرف من أين أبدأ.. ثم نمت.. واستيقظت في الساعة التاسعة صباحًا، قمت، وجدت أمي وأختي وبعض السيدات من جيراننا من أهل البلدة، يجهزون الأكل هناك؛ الكثير من الطيور واللحوم، جهزت راضية الفطور وجلبته إلى غرفتي، وبعد ما أنهيت طعامي جلست أقرأ وأنا أحتسي كُوبًا من الشاي المفضل لدي، جاء أدهم، سمعت صوته يأتي من بعيد.

قال: السلام عليكم.. إزيك يا أمي؟

قالت: إزيك يا حبيبي، عامل إيه، وعيالك عاملين إيه؟

قال: الحمد لله، أهم جايين ورايا... أُمّال العريس فين؟

قالت: أخوك في غرفته جوا..... فدخل أدهم عليَّ غرفتي.

قال: يا صباح الورد، ألف مبروك يا حبيبي.

قلت: الله يبارك فيك يا أدهم، وصافحني وصافحته، وعانقني وعانقته.

- عامل إيه؟

قال: الحمد لله، طمّني عليك، إنت النهارده أحسن، بسم الله ما شاء الله.

قلت بابتسامة: الحمد لله، قولي صحيح هو مصطفى عامل إيه النهارده؟

قال: يعني.. أحسن من الأول.

قلت: اتكلم ولا لسه؟

قال: لا لسه.

قلت: ربنا يشفيه، إن شاء الله واحدة واحدة هيتكلم... لكن مين اللي بيسرح الغيط مكانه، وبيراعي مصالحه؟!

قال: أنا باخد البهايم معايا الصبح؛ بأكلهم وارجعهم آخر النهار.

قلت: ربنا يجزيك خيرًا يا أدهم.

قال: المهم إنت، خد بالك من نفسك.... هنروح إمتى إن شاء الله عند الجماعة؟

- بعد العصر، إن شاء الله، وقت مناسب.

- ضحك ثم قال: مش بدري كدا؟!

- أُمّال نروح إمتى؟

- يدوب المغرب، حلو.

- لا المغرب متأخر، علشان عمك جمال يلحق يغدي الناس اللي هتروحله.

- اللي انتم شايفينه ياخويا، هتروحوا انتم وأنا هجيلكم على هناك، عقبال ما أروح البهايم وارجع ماشي.

- ماشي يا حبيبي، لكن متغيبش.

أوما برأسه بابتسامة وهو يقول: حاضر يا حبيبي.

فخرج وكانت السماء مليئةً بالسحب المحملة بالمطر، غيامة تنذر بالمطر الشديد، بدلت ملابسي وخرجت قبل الظهر، ذهبت إلى بسيوني وجلست معه في البيت.

بعد التحيات والشاي.. أخبرته عن الحلم.

قال: إنت مش عاجبني خالص اليومين دول.

قلت: الحلم كأنه كان حقيقة يا بسيوني، مش مجرد حلم.

قال: متمشيش ورا التخاريف دي، دا مجرد حلم عادي، كل الناس بتحلم.

قلت: مش مجرد حلم، أنا متأكد من كدا.

- شكلك بتفكر تعمل حاجة.

قلت: سأذهب إلى الساقية، وأبحث هناك لعلي أرى شيئًا.

- إنت مجنون يا صديقي، إسمع ما رأيك أن تلغي كل ما تفكر به اليوم، وتضع تركيزك على الخطوبة، وأنا معاك من بكرة، شوف إنت عايز تعمل إيه وأنا معاك.

قلت: عندك حق يا بسيوني؛ لنستمتع اليوم، لا نعرف ما سيحدث بعد ذلك؟!

جلسنا قرابة ساعتين أو أكثر ثم استأذنت وخرجت، وبينما أنا في منتصف الطريق تغيّر الجو فجأةً، ورعد وبرق يظهر في السماء بخلفية مرعبة، والأمطار تتساقط بسرعةٍ وشدةٍ، ولا أعلم ماذا أفعل؟! ظللت ناظرًا للبرق وبعدها مشيت في المطر وكنت أحب المشي أثناء المطر، وجدت نفسي عند الترعة، وقفت أتأمل والمطر يتقاطر على سطح الماء؛ ليشكل دوائر محببة للنفس، أعشق الشتاءَ دون الصيف و... صه قليلًا ما هذا الصوت؟! التفت حولي لا أحد ورائي، لا أحد! إنه صوت ساحر يقول:

- أحمد.. تعالى يا حبيبي، أنا مستنياك.

الصوت واضح تمامًا.. كنت أنظر في المياه تجاه الصوت.. هذا الصوت أعرفه جيّدًا، إنه صوت.... جاء الصوت من الخلف، التفتُ، جاء الصوت من الأمام هذه المرة رأيتها!

رقية!

كانت تقف في البر الثاني من الترعة، ها هي تمشي بضحكتها الساحرة، وتشير إليَّ أن ألحق بها، ظللت أنادي عليها وهي لا تنظر لي؛ فهي الآن تتجه نحو الساقية المهجورة؛ هل جُنّت رقية؟! المطر ينزل علينا بغزارة، وأصوات الرعد في كل مكان يشتت تفكيري، ليس هناك حلٌّ آخر غير أن ألحق بهذه المجنونة؛ لكي لا تؤذي نفسها، ركضتُ ناحية الجسر؛ لأمر إلى الناحية الأخرى، كانت قد اختفت عن ناظري، وأنا أركض ناحية الساقية والأرض الطينية الزلقة جراء المطر تعوق حركتي.. حين وصلت وجدتها واقفةً بجوار البئر، وتنظر تحت قدميها في ذهول.

- رقية... رقية... بتعملي إيه هنا؟!

لم تجب، ولم تنظر إليَّ أيضًا، كانت تشير إلى شيء تحت قدميها، لا أراه.

قلت وأنا اقترب ببطءٍ: رقية! ردّي عليَّا، بتعملي إيه هنا.. وإيه اللي خرّجك دلوقتى؟!

رفعت وجهها ونظرت إليَّ، وما زالت تشير بيدها تحت قدميها.. لحظة.. ما هذا.. هناك شيءٌ ما في وجهها.. وعلى رقبتها.. لا أرى جيدًا، المطر ينزل على عيني بشدة.. والبرق من وراء الشجر.. أصوات مرعبة.. وعيني تترقّبها.. عليَّ أن أقترب قليلًا ولكن بحذرٍ.. الآن اقتربت.. أرى جيّدًا.. خربشات على وجهها وعلى رقبتها.

قلت: رقية، ماذا حدث لوجهك، من فعل هذا؟!

اقتربت بسرعة.. ضرب الرعد ورائي مباشرة.. نظرت للخلف، حدث هذا في ثوانٍ.. ولمّا عاودت النظر إليها كانت هي نفس الفتاة التي رأيتها في حلمي، وتنظر إليَّ نظرةً ذات معنًى.. أحسست بقلبي يخفق بشدة، ها أنا قد وقعت في أسرها، أنا ميت لا محالة.. ولكنها أشارت إلى نفس المكان واختفت عن ناظري.. وصوت الرعد أيقظني من دهشتي.. وكأني كنت أحلم؛ لا أدري! ما كان هذا؟! نظرت حولي، لا يوجد أحدٌ، لا أصوات لا شيء غير صوت المطر، نظرت حولي واستعذت بالله.. فكرت قليلًا، هناك خطبٌ ما في هذا المكان وعليَّ أن أصل إليه مهما كلفني الأمر.. ما دمتُ لم أمت؛ فهذه مهمتي الآن، وعليَّ أن أُنهيها.. وفجأةً.. تذكرت رقية، ركضت مُسرعًا إلى منزل رقية، طرقت الباب وخرج عمي جمال وهو يقول: مين.. مين اللي بيخبط... هيا الدنيا انهدت ولا إيه؟!

قلت: أنا يا عمي جمال.

قال: مالك ياحمد؟!

قلت: فين رقية يا عم جمال؟

خرجت رقية مُسرعةً، لما رأيتها هدأت أعصابي، كنت في موقف لا أحسد عليه، علمت أن ما كنت فيه هو... لا أعلم، ولكنه ليس حقيقةً.. أو نصفه حقيقة ونصفه رسالة لي.. إنها أحلام اليقظة.. إنني أعرف ذلك من علم النفس، نظرت لرقية فإذا هي طبيعية، لم يكن هناك شيءٌ في وجهها غير الاحمرار في خدودها، زاد من جمالها الطبيعي.. وكانوا جميعًا

ينظرون لي وهم مذهولون من منظري، وإلى ملابسي المُبتلّة ومنظري، كيف أخرج من هذا المأزق؟! سيظنون الآن أنني جننت!

قلت: أنا آسف يا جماعة، واحد سخيف قال لي: إن رقية تعبت، فجئت لأطمأن عليها.

يتبادلون النظرات وكأنهم لا يصدقون ما أقول، قال عمي جمال: إنت كويس يابني.. تعالى.. أُدخل.. هتاخد برد.

قلت: لا، شكرًا، لابد أن أذهب الآن إلى البيت لأجهز نفسي.. هزار سخيف حقّكم عليّا، أنا آسف، آسف يا عمي، عن إذنكم.

عدت إلى البيت، فزعوا حينما رأوني هكذا.

قالت أمي: إيه يابني اللي خرجك في الشتا كدا، عايز تتعب تاني؟!

قبّلت يدها وقلت: لا، يا أمي، أنا بخير، الحمدلله، لا تقلقي، لسه جاي من عند بسيوني.

قالت: وإيه اللي خلّاك تطلع في المطر دا، كنت انتظرت لغاية ما يخلص المطر!

قلت: شكلها هتغيب يا أمي، ولسه ورايا حاجات عايز أعملها، خلّيني أدخل أبدل ملابسي.

دخلت غرفتي، ودارت الأفكار في رأسي.. هل هذه رسالة، ولماذا رقية بالتحديد؟! لا أعلم شيئًا، ومع أذان العصر بدأ مُودي يتغير، وبدأت أندمج مع الفرحة في البيت، جاء أدهم ومعه أعمامي، وجلسنا في البيت،

وهذه المرة صمّموا على أن أرتدي جلبابي الأنيق؛ فارتديته، وقبل المغرب بساعةٍ ذهبنا إلى بيت حبيبتي، كان هناك بعض الكراسي أمام المنزل ونشارة خشب مطلية باللون الاحمر، لماذا اللون الاحمر بالذات؟! لأن اللون الأحمر في هذه الأيام كان لونًا مُحببًا في الأفراح، حتى أفرع الإضاءة معظمها باللون الأحمر والأخضر والأصفر، لم يكن هناك دي جي ولا أي نوع من مظاهر الأفراح الحالية، جلسنا بعد سلاماتٍ وترحيبات عم جمال الكثيرة جدًّا لدرجة المبالغة، ولكنها من القلب، جاء بسيوني وماهر والدكتور فاروق وبعض الأصدقاء، وبعض أعيان البلد، وكانت أصوات السيدات تعلو بالزغاريط وأغاني من التراث الفلاحي: يا حمام، ويحيا أبوها وشنبه.. وأشياء من هذا القبيل، وهناك أغنية أضحكتني وأنا جالس في الخارج، تقول: من تغني يارب تكوني هادية وعلى حماتك راضية، والكثير من الأغاني في التراث، بعد ذلك وضعوا الطعام وبدأوا يدخلون الناس ممن أتوا؛ ليضيفوهم، فوجود الأصدقاء بجوارك في هذه المناسبات والأفراح يبعث السرور إلى القلب، ومن دونهم تكون الفرحة غير مكتملة، وبعد العشاء خرجت رقية من البيت، كانت ترتدي فستانًا مُلونًا مُكشكشًا من الوسط طويل يليق بالمكان وتقاليدنا، لا أعلم له اسمًا آخر؛ لأني لا أهتم بأسماء الموضة وأسماء الفساتين، وأجلسوها بجانبي وبدأت النساء بالتطبيل على طبلة مصنوعة يدويًّا من جلد المواشي، والأغاني التي ذكرتها، ثم جلب أهلها

الشبكة لكي أشبك حبيبتي، وكانت رقية في أجمل حالاتها، ولكن! لماذا عندما أنظر إليها تأتي في عيني ومضات؟! صورتها عندما كانت عند الساقية، فأغمض عيني، أراها كما هي ولا أريد أن ألفت النظر إليَّ، سيقولون: إنني جننت أو ممسوس. أمسكت يدها وألبستها الذهب بأكمله، ومسكت يدي وألبستني دبلتي، وكان حياؤها وجمالها ورِقّتها تخرجني من أي تفكير في وسط الزغاريط، وجلسنا مع الناس قليلًا، وبعد ذلك أدخلونا أنا وهي إلى البيت، وجلسنا أنا ورقية وحدنا وباب الغرفة مفتوح نصف فتحة، جلبوا لنا الطعام، وكانت كل حركة منها تصدر صوتًا من الكردان للغوايش؛ قلت لها على سبيل المزاح: مش كنا اشترينا طقم واحد أفضل بدل منتي كل حركة تشخللي زي الحصان!

قهقهنا حتى احمرّ وجهها.

قالت في حياءٍ: لعلمك بقى الصوت دا محبب لسمع أي ست، أحلى من أغاني عبد الحليم كلها.

قلت: الله الله، إنتي كمان بتسمعي أغاني عبد الحليم.

قالت: طبعًا بسمعوا على الراديو.

قلت: وبتسمعيها لمين بقى؟!

قالت باستحياءٍ: الله بقى يا أحمد! هسمعها لمين يعني؟!

قلت: يعني ما دام بتحبيها.. قاطعتني.. ليك.. إنت عارف أنا مش مصدقة لغاية دلوقتي!

قلت: ربنا يخليكي ليّا يا حبيبتي.

كانت تحمرّ خجلًا من أقل كلمة، وكنت أحب هذا، حقًّا إنه شعورٌ جميلٌ، أنك تتزوج فتاةً عينك شافتها وهي بتكبر قدامك واحدة واحدة، وعارف كل شيء عنها؛ طبعها، أخلاقها، وهي أيضًا، وبعد الزيطة واللمة.. لم أحكِ لها طبعًا أي شيء، لا أريد إرعابها لأي سببٍ كان، وما دامت هي أنثى فلا خوف عليها؛ لأن النداهة لا تقتل النساء، بل تقتل الرجال فقط، ولا أعلم السبب حقًّا؛ لماذا الرجال فقط؟! دحنا غلابة، لكن سؤال ليس له إجابة! ذهبت إلى البيت، كانت أمي وأختي جالستين، وكنت في قمة سعادتي، جلست معهم قليلًا، ودخلت غرفتي، بعد أن دخلوا لينناموا؛ نمت في هذه الليلة نومًا مُتقطعًا، حين أغمض عيني أرى سلسلةً من الومضات غير المفهومة، ظللت هكذا حتى الصباح عند الساعة السابعة، وسمعت هرجًا ومرجًا بالخارج، اعتقدت أن هناك معركةً في البلد، قمت لأرى ما الخطب؟!

قالت أمي حين رأتني خارجًا من غرفتي: رايح فين ياحمد؟!

قلت: صباح الخير يا أمي.

قالت: صباح الخير يا حبيبي.

قلت: إيه الدوشة اللي برة دي؟

- مفيش حاجة يا حبيبي.

قلت: أُمّال إيه؟!

قالت راضية: لقوا راجل مي....

قاطعتها أمي بأن تصمت.

قلت: راجل مين.. متتكلموا؟!

قالت: لقيو واحد، بعيد عنك وعن السامعين، ميت في الترعة.

قلت بفزعٍ: مصطفى؟!!

قالت: لا يا حبيبي، دا واحد غريب عن البلد، بيقولوا غفير من الغفراء بتوع عمك.

قلت: يا إلهي، معقول يكون هو ولا واحد تاني.

كان عليَّ أن أخرج، وأمي تنادي وتقول: يابني متخرجش.. يابني... يابني.

وكلما ابتعدت أخذ صوتها يتلاشى، ذهبت إلى الترعة، وكان هناك الكثير من الناس يقفون في حذرٍ، وعلى وجوههم ذهولٌعلى خوفٍ على رعبٍ، كانوا يقفون حول الجثة.

قلت: سلام عليكم.

رد الجميع: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

قلت: ماذا حدث؟! لم يرد عليَّ أحد، نظرت للجثة.. إنه هو.. كان وجهه شاحبًا وتعتليه نظرةُ رعبٍ وعيناه بيضاء متسعة... كيف حدث ذلك؟! لقد طمأنني ماهر على هذا الخفير من قبل، يا ترى! ماذا حدث؟! وقف الأهالي في رعبٍ، منهم من يقول: وبعدين يا جماعة.. هنفضل ساكتين كدا لغاية إمتى.. لغاية إما الدور يلف على كل واحد فينا، ولا إيه يا جماعة؟!

نطق الآخر: وانت عايزنا نعمل إيه يعني؟

وعلت المناوشات والمناقشات في حدةٍ بينهم؛ نتيجة الخوف الشديد الكامن في قلوبهم، حتى قلت بصوتٍ مرتفعٍ ونبرةٍ صارمةٍ: إهدوا يا جماعة من فضلكم، خلّونا نعرف نفكر إزاي نخلص من الموضوع ده!

قال أحدهم في حدة: والله ما حد هيودي البلد دي في داهية غيرك إنت!

نظرت لمن يتكلم، كان رجلًا كبيرَ السن، يسكن في الناحية الأخرى من البلدة.

قلت: شكرًا يا حاج لكن... لماذا تقول ذلك؛ هل تعرفني؟!

أشاح بيده.

قال: أعرفك ولا معرفكش، هتفرق يعني!

قال شاب يقف بجواره: خلاص يابا. وقال لي: معلش يا أستاذ أحمد، الحاج ميعرفكش.

قلت: حصل خير، المهم اتصلتم بالمركز؟!

قال أحدهم: أيوه يابني، الغفير بلغ وزمانهم في الطريق.

قلت: طيب نغطي الجثة لغاية ما ييجو.

خلع أحدهم جلبابه وغطى الجثة، جاءت سيارة الشرطة؛ ماهر ومعه بضعة رجال، وطبيب آخر غير فاروق، وصرخ العساكر في الناس لكي يبتعدوا، وشرع الطبيب يتفحص الجثة، وقف ماهر بجواري وربت على كتفي.

قال الطبيب: نفس الأعراض زي كل مرة، وخربشة على الرقبة والرجلين!

قال ماهر: لا حول ولا قوة إلا بالله.

أمر رجاله: إما الأسعاف توصل؛ ياخدوا الجثة للمشرحة. وقفت أنا وهو بجوار السيارة.

قال: ا بقى عدي عليّا، نقعد مع بعض شويه.

قلت: أنا مش عارف مواعيد شغلك، أمر عليك إمتي؟

قال: اليوم قبل المغرب، هكون موجود إن شاء الله.

قلت: حاضر، هجيلك علشان عايز أتكلم معاك شوية.

قال: تمام هستناك.. وذهب.

قلت للرجال الواقفين: علينا أن نتجمع بعد صلاة الجمعة في المسجد. واستأذنتهم.

عدت إلى البيت، وأثناء عودتي، وأنا لا زلت في الطريق، عندما وصلت إلى منزل رقية؛ وجدتها تنادي عليَّ من الشباك، أشرت إليها وابتسمت، عندما كنت أراها؛ ترتسم الابتسامة على شفتاي!

قالت: انتظرني سأخرج. خرجت من الباب، صباح الخير يا أحمد.

قلت: صباح الورد يا رقية.

قالت: عامل إيه؟!

قلت: الحمد لله.

قالت: مالك يا حبيبي؟!

حينما نطقتها فرجت أساريري بالحب، وأظن أنها قالتها دون إدراكٍ، وهذا أجمل شعور؛ لأنها لا تتصنع، ما في قلبها يخرج لقلبي مباشرةً، وأنا أيضًا لم أعلق على الكلمة لأجل خجلها.

قلت: أبدًا، مفيش حاجة.

قالت بصوت منخفض: إنت كنت على الترعة.

قلت: أيوه.

قالت: تاني يا حبيبي.

قلت: تاني إيه بس، وتالت إيه يا حبيبتي.

قالت: أنا خايفة عليك يا أحمد.

قلت: متقلقيش لو كان هيحصلي حاجة كان حصل من زمان.

قالت: بعد الشر عنك.

قلت: الشر موجود في البلد يا رقية، الغفير اللي مات، والناس اللي عمالة تموت دي، ذنبهم إيه؟! عايز أعرف بس الناس دي ذنبهم إيه؟!

قالت: قدر ومكتوب يا حبيبي، إنت في إيدك إيه تعمله؟

قلت: ونعم بالله؛ إذا أراد الله شيئًا كان، المهم أبوكي فين؟

قالت: خرج راح الغيط، تعالى أعملك فطار ونفطر مع بعض.

قلت: لا يا حبيبتي، تسلمي هأبقى أجي لمّا أبوكي يكون موجود.

قالت: أمي جوا.

وقفت قبالة الباب، وسلمت على والدتها، وعزمت عليَّ أن أفطر معهم، ولكني استأذنت.

قالت رقية: خد بالك مني يا أحمد.

قلت: منك؟! إنتي في قلبي يا رقية، بس ليه بتقولي كدا؟!

قالت: أيوه؛ لأن روحي فيك، ولو جراتلك حاجة أنا هموت مش هستحمل.

قلت: متقلقيش هاخد بالي منك. وابتسمت لها، نظرت في عيناها الجميلة قليلًا حتى احمرّ وجهها خجلًا، وأشرت لها وأنا أدير ظهري؛ لأكمل طريقي.

وصلت إلى البيت، جلست مع أمي وأختي، كانوا قد جهزوا الفطور وانتظروني.

قالت أمي: ها يا حبيبي، عملتم إيه؟

قلت: ماهر خد الجثة وراحوا المستشفى.

قالت: لا حول ولا قوة إلا بالله، كل يوم جدع يروح كدا!

قلت: نصيبهم. قالت: إنت تعرفه ياحمد، الراجل اللي مات النهاردة دا؟

قلت: لا يا أمي، معرفوش، لكن ماهر وعمي يعرفوه كويس؛ من رجالتهم.

قالت: هي الملعونة، دي لعنة على البلد واللي فيها.

قلت: تفتكري يا أمي هيّا النداهة بتختار الضحية ولا دا نصيب؟1

نظرت إليَّ، ولم تفهم ما قلت وهذا أفضل.

قالت: يعني إيه؟!

قالت راضية: محدش فاهم حاجة في الموضوع دا بالذات يا خويا، ناس بتقول: إنها جنّية، وناس تانية تقول: عفريتة واحدة بتطلع تنتقم، ربنا وحده اللي يعلم هيّا إيه.

كان كلامها كالآلة الحادة، دخل إلى قلبي، شعرت بشيءٍ، لا أعرف كُنهه، ولكني تذكرت، وبعد محاولات عدة لتفسير كلامها، كان كلامها منطقيًّا جدًّا، وكان تحليليًّا، إنها ليست جنّية وليست عفريتة، ولكنها الاثنتان معًا، بعدما انتهيت من تناول طعامي وشربت الشاي دخلت غرفتي، وضعت الأوراق أمامي؛ لأضع النقاط على الحروف، لن يفيد الصمت بعد الآن، مع كل انتظار تزيد الجثث، والله أعلم.. من التالي؟!! لنراجع ما كتبت بعد سؤالي أهلي وأصدقائي، جمعت بعض المعلومات في الأيام الماضية؛ الضحية الأولى منذ عودتي لن أعود للخلف أكثر.

أحمد عامر، شاب ثلاثيني، خرج في منتصف الليل؛ ليسقي أرضه، ويقول آخرون: إنه يتعاطى المخدرات، سمع صوتًا يُناديه من كل مكان، وأن هناك من الأهالي مَنْ سمع الصوت، وأنا أشك في هذا؛ لأنني جربت ذلك بنفسي، النداهة لا تصدر صوتًا مرتفعًا، الصوت يصدر من داخل رأسك؛ فتسمع النداء في رأسك، كالتخاطر، نداءٌ صامتٌ، صوتٌ ساحرٌ لا يقاوم، وجدوا هذا الشاب مقتولًا في قلب الترعة، بنفس الأعراض التي رأيتها اليوم؛ عيون بيضاء متسعة، وكأنه رأى شيئًا مُرعبًا، وهذا على حد وصف من رأوه هناك، كانت خدوش على رقبته وقدمه.

الضحية الثانية: وائل السيد، خمسة وعشرون عامًا، بحسب أقوال أهله؛ خرج ليشمَّ الهواء، ويمشي قليلًا، لكنه لم يعُدْ، كان الهواءَ الآخيرَ الذي تنفسه قبل أن يسمع الصوت الساحر، وتبعها إلى الساقية، وهناك قُتِل، ووجدوا جثّته في الترعة، بالقرب من هناك.

الضحية الثالثة: محمد رفعت خمسة وثلاثون عامًا، تأخّر في أعمال الحقل إلى وقتٍ متأخرٍ، وهو عائد إلى بيته من طريق الترعة القديمة سمع الهمسات والصوت الشيطاني؛ فتبعه ونزل الترعة، ولا أعلم!! هل تظهر لهم في الترعة لينزلوا، كما رأيتها أنا؛ فيقفزون كما فعل مصطفى أم ماذا يحدث عندما يسمعون صوتها الساحر الذي يغيب العقل؟! عندما قفز محمد في الترعة هذه المرة كان بجوار منزل، ولم أكن أعرف هذا أن هناك مَنْ أنقذه، وذهب إلى بيته، وجلس في بيته مذهولًا شارد الذهن، لا يأكل ولا يشرب حتى جاء الليل وهرب من البيت، وجدوا جثته في الترعة في اليوم التالي، عند المزلقان القديم مكاني المفضل، عرفت المعلومات الأخيرة في الوقت القليل الذي وقفته أثناء تجمع الناس حول جثة الخفير عبد الصمد، وكان بعض الناس يتهامسون بينهم، وآخرون يستعيذون ويستغفرون.. إن محمدًا خرج ركضًا في نفس الليلة التي خرجت فيها؛ عندما سمعت الصوت وخرجت وخرج عمي جمال وسحبني داخل بيته، كان هذا الشاب هو نفسه من صرخ، وأظن أن هذه الصرخة التي سمعتها؛ لأنه قبل أن يقتل يعود إلى وعيه، وحين يرى

شكلها القبيح الوحشي يصرخ، ولكن الآوان قد فات، ويبقى السؤال: لماذا الرجال تحديدًا؟!. هذا هو السر، إن توصلت إليه حينها فقط أستطيع أن أتغلب عليها، وآخذ حقي وحق أهل البلد منها، في كل ما فعلتْه بأهل البلد الطيبين؛ مما سبّبته من خوفٍ ورعبٍ للكبير والصغير، وأعيدها إلى عالمها.. إلى الجحيم.

هنا تذكرت مصطفى بعد ما فعلته بالخفير؛ فالدور آتٍ لا محالة على مصطفى، حانت الصلاة فجهزت نفسي، وبعد كل ما يجب فعله.. الاستحمام والملابس والمنظر المحبب وضعت برفاني المفضل، وخرجت ذاهبًا إلى المسجد، وجلست أقرأ القرآن حتى بدأت الناس تأتي، وجاء أدهم وعمي وجلسا بجانبي، وامتلأ المسجد عن آخره، وخطب الشيخ خطبته عن الموت والابتلاءات، وكانت خطبةً رائعةً، وبعد الصلاة ذهبت مع عمي وأدهم إلى بيت عمي حيث تجمعنا هناك؛ أنا والشيخ محمود وأدهم وعمي وشيخ الخفراء، وعمي عبد الحميد، وبسيوني، وبعض الرجال الآخرين من البلدة، لم يرضوا أن نتكلم في المسجد؛ لئلا نثير رعب وذعر الناس فوافقت؛ لذلك ذهبت إلى عمي، فهو عمدة البلدة، ولابد أن يكون مُطّلعًا على ما سنفعله، والأمر شُورى.. فهو عمي ومسؤول عن حماية البلدة وأهلها، تجمعنا حول منضدة.. جاؤوا بالصواني تحمل أكوابًا من الشاي.. وجلسوا يدخنون، وبدت عليهم أمارات الجدية.. وأنا من بينهم، وبعضهم كان قلقًا.. وخارج المنزل

كان يقف أكثر من عشرين رجلًا عازمين على تحطيم أي شيء.. حتى ولو كانت شياطين الدنيا، لقد ملّوا من كثرة القتل، وكلٌّ منهم شجّع الآخر، في الداخل كنا أكثر هدوئًا.

قلت: صلّوا على النبي.

قالوا: عليه الصلاة والسلام.

قلت: دلوقتي يا جماعة إنتم شايفين أحوال البلد، نحن في مأزق.. إلى متى ننتظر؟! الموتى عددهم في ازدياد.

قال عمي: كلامك زين يابن أخويا، لكن ماذا نفعل؟! في إيدينا إيه نعمله، هذه شيطانة، لو كانت أي شيء آخر لكنا قبضنا عليها، لكن دي هنعمل معاها إيه؟!

قلت: أهم شيء دلوقتي؛ إننا كلنا واثقين إن هذا الشيء أيًّا كان نوعه.. جن.. جنية.. بنت الشيطان.. أخته.. أيًّا كان يعني.. إنها كلفتنا المزيد من أرواح البشر.

قالوا: طبعًا متفقين.

قال الشيخ محمود: المهم دلوقتي نعرف إيه سبب وجودها هنا بالذات؟ ومن أين جاءت؟

قلت: إنها ممكن أن تكون روحًا عالقةً، لابد أن نبحث عنها ونريحها، وإلا فلن يحدث شيءٌ، ولن نستطيع فعلَ شيءٍ.

قال الشيخ محمود: هذه الكائنات موجودة بيننا، وقد عرضت الأمر على أساتذتي، فقالوا: إن الحل الأمثل أن نعرف السبب أولًا ثم نطردها من حيث جاءت؟

قال رجل من أعيان البلد الذين دعاهم عمي للحضور: أشك بأن ما تقولوه صحيحًا، وأن هذا كلّه جنون.

قلت له: دون أن تعرف.. النداهة موجودة، وهذا ليس عبثًا ولا هراءً كما تقول، والدليل على هذا مصطفى الذي أخرجته بيدي من الترعة.. وأنا بنفسي رأيتها!

نظروا إليَّ جميعًا وكأنني جننت.

قلت: للتأكيد نعم، رأيتها، وليس هناك دليلٌ أكثر من الجثث التي وجدها الرجال في الترعة، وعليهم جميعًا نفس الأعراض، والشرطة سجلتها ضد مجهولٍ؛ لأن التحقيق لم يصل لأي شيء، جميعهم، آخرهم الغفير عبد الصمد يا عمي.

قال عمي: الله يرحمه، كان راجل طيب.

قلت: إذن بعد كل ذلك؛ أنا لا أميل إطلاقًا أن هذا كله عبثٌ، فلا سبب يدعو أي شخص مهما كان مُختلًا أن يقتل الناس بهذه الطريقة، دون أن يترك دليلًا أو غلطةً واحدةً.

قال بسيوني: نحن متأكدون أن ما يحدث ليس بفعل فاعل، وأنها تُنادي ضحيتها إلى الترعة في كل مرة، حتى يحدث ما نراه ونسمع عنه في اليوم التالي ونجد الجثة.

ساد الصمتُ المكانَ.. تساءل أحد الرجال الحاضرين: هو ليه الجنية لم تمس الأستاذ أحمد. وأشار ناحيتي.

قلت: قدرة الله وآيات القرآن الكريم حفظتني؛ هل تشك في ذلك؟!

قال: ونعم بالله.

قلت: وأيضًا لأنني لم أنصع إلى صوتها، كانت تريد مصطفى، لم تكن تريدني أنا، وإلا لكنت ميّتًا الآن.

نطق أحدهم في عجالة: هل سمعت صوتها؟ كيف يبدو؟ هل رأيتها؟

ساد الصمت المكان مرّةً أُخرى، وإن كنت قادرًا على سماع أفكار الجالسين، التي تدور في أذهانهم، وبعد قليل همس العمدة الذي هو عمي جابر.

قال: أرى أن الجميع يشاركني الرأي في عودة الخفراء إلى البلدة من جديد.

قلت في حزمٍ: إن الخطر يفوق كلَّ شيءٍ، والأمان الوحيد أن يبقى الناس في بيوتهم ليلًا، ولا أحد يدخل إلى الحقول مهما كان؛ لذا أوافقك الرأي يا عمي في عودة الخفراء؛ فيطمئنوا الناس قليلًا، على الأقل سينامون.

قال بسيوني: عندي اقتراح يا عمدة!

قال عمي: اتفضل يا بسيوني.

قال الخفراء: لا يبقون وحدهم، يمكنهم أن يمشوا.. اثنان أو ثلاثة مع بعضهم، أو في حشودٍ لتفتيش الأراضي، لا ننتظر أن تُنادي أحدًا آخر.

قلت: إذًا؛ فليمشطوا الأراضي والبلدة كلها ليتأكدوا أنه لن يخرج أحدٌ من بيته ليلًا.

قال عمي: تريدون الخفراء أن يمشطوا الأراضي والبلدة كلها ليلًا، هذا صعبٌ للغاية، ولو فرضنا هذا جدلًا، فعلى كلامكم إنها جنّية؛ كيف سيقبضون عليها إن رأوها؟!

قال الشيخ محمود: الحل الوحيد.. الخل والملح والمياه المقروء عليها.

سمعنا همهماتٍ من بعض الرجال.

قال عمي عبد الحميد: إذا كان لا يوجد حلٌّ آخر، فافعل ذلك يا شيخ محمود.

قال عمي جابر: سأجلب لكم الملح والخلَّ، فافعلوا ذلك.

قال الشيخ محمود: على كل الغفراء اللي هييجوا إن شاء الله للحراسة في المناوبات بتاعتهم؛ يستلموا زجاجةً بها المزيج الذي سنجهزه بمشيئة الله، ويضعها في جيبه، وإن رأى شيئًا يخرجها دون أن يرد عليها إن نادته أو رآها.

قال عمي: المشكلة إنهم لن يصدقوني في المركز حين أطلب خفراء كثيرين لهذا السبب، ولكني سأتكلم مع المأمور، وأقول: إن هناك قاتلًا طليقًا، وعلينا أن نقبض عليه؛ لمنع عمليات القتل هذه.

نطق الجميع وقلنا: أصبت الرأي. واتفقنا.

خرجنا ولا يزال رجالٌ يتهامسون.

قال الشيخ محمود لي: أريدك معي. قلت: اعذرني يا شيخ محمود، اعمل إنت ما تستطيع عمله، حين يجلب لك عمي ما تريد، سآتي معك، أما الآن فلدي شيءٌ آخر أود القيام به.

قال: أنا كنت أقول لك: لا أريدك الآن طبعًا، لكن لمّا يأتي العمدة بالأغراض سأحتاجك.

قلت: حاضر.

قال بسيوني: إلى أين أنت ذاهب؟!

قلت: ماهر، كنت طالب منه طلب، وقال لي: ابقى مرّ عليّا.

قال: أجي معاك؟

قلت: لا خلّيها مرة تانية، لأن محتاج منك حاجة تانية خالص.

قال: اتفضل.

قلت: أنا عايزك تكون مع الشيخ محمود.

قال بسيوني للشيخ محمود: أنا جاهز يا عم الشيخ.

قال: ما شاء الله حماسكم حلو، لكن ليس الآن، إن شاء الله لمّا العمده يجيب الأغراض المطلوبة هبلغك.

واستأذن الشيخ لكي يُؤذّن لصلاة العصر، وكذلك استأذن بعض الرجال المتحمسين الواقفين أمام الباب، ومشينا أنا وبسيوني بما إن بيت عمي في وسط البلد، شارع داير الناحية، هذا اسمه، مشينا في تؤدةٍ ونحن نتكلم حتى خرجنا على الطريق الرئيسي من ناحية المزلقان.

قال بسيوني كلامًا لم أفهمه؛ لأنني كنت شارد الذهن، أفكر في مصطفى، وشعوري في هذه اللحظة حين قفزت في الترعة وراءه، ورأيت الفتاة! يا تُرى.. ما قصتها؟! هل لها قصة أم ظهرت من العدم، من اللاشيء؟ وهل

يستطيع ماهر أن ينفذ ما يدور في ذهني ويساعدني في حل هذا اللغز؟! إن كان ما يدور في ذهني صحيحًا، فليكن الله معنا. انتشلتني يد بسيوني من شرودي وهي تتحرك أمام وجهي، ويقول: هيه يا أحمد، يا عم السرحان!

عندما نظرت إليه وغمغمت... اامم.

قال: إيه اللي واخد عقلك؟

قلت: الحمد لله إني لسه فيّا عقل، اللي بيحصل دا مش طبيعي خالص!

قال: والله يا صاحبي أنا رأيي إننا منعملش حاجة، ونترك الأمور هكذا، دون تدخلٍ، على حالها حتى تنتهي من تلقاء نفسها كما بدأت.

قلت: إنت معتقد يا بسيوني إن اللي بيحصل ده هيخلص لو تركنا الأمور كما هي؟!

قال: طبعًا، أُمّال يعني، هو بدأ إزاي أصلًا؟

قلت: ما هي دي النقطة، لو عرفنا كيف بدأت ساعتها بس هنقدر ننهي اللعنة دي.

قال بحِيرَةٍ: مش فاهمك!

نظرت إليه بتركيزٍ شديدٍ، قلت: هقولك على حاجة، لكن إوعدني إنك لن تخبر أحدًا.

قال بطريقته المعتادة: كُلّي آذان صاغية، مش عارف هتودينا فين يا صديقي، لكن معاك مهما يحصل.

قلت: تمام... عارف في اليوم اللي أنقذت فيه مصطفى.. رأيتها مرة في الترعة وهي بتشد مصطفى تحت المياه، ولما خرجت من المياه...

قال: شفت مين؟!

قلت: النداهة أو الجنّية، زي ماهمّا مسمّينها.

صمت قليلًا، وفمه مفتوح، واتسعت عيناه.

قال: إنت بتتكلم جد، ولا عايز تخوفني؟!

قلت: طبعًا جد، هو دا فيه هزار؟!

ارتسمت على وجهه علاماتُ ذهولٍ ورعبٍ وأشياء أخرى كنت أريد أن أقذفه في الترعة، تغيّر بسيوني منذ صبانا، كان لا يخاف من أي شيء.

قال: إنت مجنون؟!

قلت وأنا أضحك: لماذا؟

قال: أكيد كان بيتهيألك!

قلت: وأنا شايفك وبكلمك دلوقتي؛ هل أنا أتخيل أم أنك واقفٌ أمامي فعلًا وبكلمك؟!

قال: طيّب، اشمعنى إنت؟! وليه تركتك كما قال الرجل في الاجتماع؟!

نظرت له وابتسمت.

قلت: إنت عايز تخلص مني ولا إيه؟

قال: لا والله ما أقصد، بعد الشر عليك يا صاحبي، لكن عايز أفهم، إنت عارف فضولي، لا أحب الأسئلة التي بلا إجابات؟!

قلت: للأسف، أنا معنديش جواب، لكن بعد تفكير وتحليل وصلت لخَيْطٍ، وهمشي وراه يمكن أقدر أوصل لحاجة، ربنا وفقني ونجحت فيه ساعتها كلنا هنفهم.

قال: ربنا يستر.

كنا قد وصلنا لبيت بسيوني، وبعد وابل من العزومة أن أدخل معه، لكني فضّلت أن أعود إلى بيتي، وجدت أمي وإخوتي في انتظاري، سألتني أمي عن سبب تأخري، وبعض الاسئلة الأمومية الاعتيادية، وضعوا الطعام وأكلنا والحمد لله، أذّن العصر ذهبت للصلاة، وبعدما تكلمت مع هذا وذاك ذهبت إلى المركز، سلمت على خفير الحراسة الواقف أمام البوابة؛ فاستفسر عن سبب دخولي، وبعدما أبلغته عن سبب حضوري هنا؛ دخلت من البوابة الصغيرة المفتوحة؛ فهو يعرفني طبعًا؛ لذلك قال لي: اتفضل ماهر بيه موجود في مكتبه، مشيت في الردهة حتى وصلت إلى الباب الرئيسي، المعلق عليه لافتة مطبوع عليها شعار الشرطة، ثم صعدت الدور الثاني، وقفت أمام باب ماهر، طرقت الباب..

قال ماهر بنبرة رسمية: اتفضل. دخلت قائلًا: السلام عليكم. ومددت يدي بالمصافحة.

قال: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته، اتفضل يابو حميد. جلسنا. أخبارك إيه؟ طمني عليك.

قلت: الحمد لله، تمام.

قال: تشرب إيه؟

قلت: شاي طبعًا.

قال: تمام، ورفع سماعة الهاتف، ولف القرص مثل المرة الماضية: كوبايتين شاي يا عم درويش، شكرًا... طمني عليك عامل إيه دلوقتي؟

قلت: الحمد لله، بخير حالٍ، إنت طمّني عليك.

قال: الحمد لله، ها في أخبار جديدة؟

قلت: كنا عند العمدة..

قال: االاه دا الموضوع كبير اجتماع من غيري؟!

قلت: يا ماهر أنا مش قادر أعرف مواعيد شغلك، هو مفيش ضابط تاني غيرك في البلد؟!

قال: فيه لكن بنقسمها مناوبات، بعلم المأمور طبعًا، شغل رسمي يعني، المهم احكيلي.

قلت: يا سيادة الباشا، أنا عندك دلوقتي علشان كده.

قال: اتفقتم على إيه؟

قلت: الشيخ محمود هيقرأ على ملح وخلّ وميه، ونملأ زجاجات صغيرة، ونعطيها لكل واحد من الغفر..

قال مازحًا: إيه يا عم السحر والشعوذة دا؟!! هتملوا البلد عفاريت.. وبعدين.

قلت: عفاريت إيه بس؟!. ما هي فيها.. مش محتاجين كفاية اللي عندنا!

قال: بغض النظر عن المياه والملح وهذه الاشياء، لكن إنت بتقول: غفر، همّا فين الغفر دول.

قلت: ما هو عمي جابر هيطلب غفر من المأمور.

قال: تفتكر إن دا الحل؟

- أدينا بنحاول يا ماهر، بدل مالناس تموت كل يوم، وبعدين أنا محتاج منك شيء آخر.

قال: اتفضل. أخرجت الورق من جيبي وأعطيته.

قال: ما هذا؟!

قلت: اقرأ وإنت تعرف. أخذ يقرأ بسرعةٍ، وملامح وجهه تزداد حدةً.

قال: يعني... قاطعته... أخرجت الرسمتين من جيبي؛ رسمة الفتاة، والشيء الآخر.

قال: دول؟!

قلت: أيوه.

قال: أعمل إيه بيهم؟!

قلت: هي دي الخدمة اللي أنا محتاجها منك.

قال: مش فاهم!

قلت: أفهمك.. تقدر تعمل بحث عن الفتيات المتغيبات، أو محاضر التغييب عمومًا من زمان؟!

قال: زمان إزاي يعني؟

قلت له وأنا أعلم أنه لن يصدقني: من ثلاثين لأربعين سنة!

قال: إيه يا عم أحمد، شوية شوية عليّا ياخي.

قلت: أنا عارف الموضوع هياخد وقت.

قال: مش وقت بس، دا وقت ومجهود، وبعدين الموضوع صعب جدًّا.

قلت: يعني مستحيل!

قال: لا طبعًا، مش مستحيل، لكن صعب جدًّا، عمومًا هفكر في الموضوع ونشوف، لكن فهمني إنت بتفكر في إيه؟

قلت: الصورة دي. وأشرت على صورة الفتاة التي رأيتها عند الترعة، والتي حلمت بها في حلمٍ عجيبٍ بأن هناك أربعة شباب وكأنهم مختطفين هذه الفتاة، وأخذوها عند الساقية المهجورة، قتلوها، ودفنوها هناك.

صمت قليلًا، وهو ينظر لي باندهاشٍ وحيرة، أخذ شهيقًا وزفيرًا.

قال: لكن دا مجرد حلم في الأول وفي الآخر يا أحمد!

قلت: ماهر! أنا متأكد من اللي بقوله.

قال: إنت بس أعصابك تعبانة.

قلت: أنا عارف ومتأكد إن كلامي، يبدو أنه غير طبيعي، وإن محدش هيصدقني!

قال: إهدى يا أحمد، إحنا أصدقاء، عايزني أقولك الحقيقة ولا أكدب عليك؟!

قلت: الحقيقة طبعًا.

قال: اللي حصل مش شوية، وبعد اللي إنت شوفته ممكن جدًّا يحصلك أعراض.

قلت: أعراض إيه يا ماهر؟! إنت شايفني مجنون؟!

قال: ياخي أنا أقصد إنك ممكن تكون بتتخيل حاجة محصلتش، وإنت قلت بنفسك: إنه حلم.

قلت: يعني إيه.. ماهر.. أنا محتاج مساعدتك، لو إحنا أصدقاء بجد، وهتتأكد من كلامي؟!

قال: عمومًا هأبحث، وربنا ييسر، لكن أنا عايزك تريح أعصابك شوية، ومش أي شيء تشوفه تمشي وراه.

قلت: ممكن يكون عندك حق، لكن أحب أن أؤكد لك أن عقلي متزنٌ تمامًا، وأنا واثق من اللي شوفته، وإني لسه متجننتش.

قال: أنا مقولتش كده يا أحمد، أنا خايف عليك مش أكتر.

قلت: ولا يهمك يا صديقي، كيف حالك أنت؟! طمني عليك.. وغيّرت الموضوع؛ لأنه لا يحتمل أي جدال، ماهر صديقي على أية حالٍ، حتى ولو شكَّ بي أني مجنون، واستأذنت، خرجت من المركز، وجملة ماهر لا تزال تتردد في أذني: ممكن يكون حصلك أعراض... تتخيل حاجة مش موجودة، محصلتش. هكذا حتى وصلت إلى البيت، ومددت يدي في جيبي، تذكرت الرسمة، نسيتها على المكتب عند ماهر، أو على الطاولة حين هممت بالخروج.. دخلت البيت وأنا غارقٌ في تفكيري.. هل أنا أتوهم

فعلً؟! لا أدري ما يحدث، ولكني متأكد مما رأيت، وانتابتني حالة نفسية سيئة جدًّا؛ لأنني لا أعلم حقًّا.. هل كلهم مخطئون، وأنا فقط على صوابٍ؟! لم أستطع المُكث في البيت، خرجت مرة أخرى وامتطيت حصاني، وذهبت مُسرعًا إلى المستشفى، قابلت الدكتور فاروق في ممر المستشفى، عندما رآني أشرت له بيدي وأشار لي.

قلت: السلام عليكم.

قال: عليكم السلام، إزيك يا أستاذ أحمد؟

قلت: إزيك يا دكتور.. أخبارك إيه؟

قال: الحمد لله، طمّني عليك.

قلت: الحمد لله.

قال: خير! فيه حاجة ولا إيه؟!

قلت: عايز آخد رأيك في استشارة طبية عاجلة.

قال: تحت أمرك، اتفضل في المكتب. مشينا في الطرقة ورائحة البنج تملأ المكان، ولم ولن أحب هذه الرائحة أبدًا، دخلنا المكتب، كان مكتبًا حديديًّا قديمًا "مصدي، لونه سلفر"، وعليه بعض الأوراق في الطرفين، وكرسي أمامه، وكرسي خلفه خاص بالطبيب، وفي يسار الغرفة حاجز عليه قماش أو بياضات، وسرير متحرك بعجلٍ خلفه، مبطن وعليه ملاية خاصة بالكشف. جلسنا.

قال: إيه الموضوع؟

- حكيت له ما حدث، لكني لم أحكِ له طبعًا عن الورق والرسومات، وحكيت له عن الأحلام فقط بعدما انتهيت.

قال: أنا مش فاهم حاجة، ممكن توضحلي.

قلت: حاضر، أنا بحلم أحلامًا غير طبيعية، لكني أراها وكأنها حقيقة.

قال: فهمت.. فهمت.. لكن كل الناس بتحلم، إيه المزعج في كدا؟

قلت: لما يكون واقعي أكتر من الواقع نفسه يبقى دا إيه؟! قلتها في عصبية.

قال: إهدى إهدى.

قلت: أهدى إيه بس، هو ممكن اللي أنا فيه دا كله يكون تهيئات؟!

قال: لا أعلم، ممكن تكون تهيئات، وممكن تكون أضغاث أحلام فقط.

قلت: يعني إيه؟

قال: لا أعلم حقًّا.

قلت في نفسي: إن قال ذلك مرة أخرى سأتركه وأذهب، لا فائدة من الكلام، ما دام لا يعرف، قام من موضعه وأخذ يتفحصني.

قال: إنت أمامي الآن بكامل قواك العقلية، وصحتك أيضًا تمام، لكن بتقول بتحلم أحلام مزعجة، إرتاح وريّح نفسك من التفكير، وإن شاء الله مش هيكون فيه أحلام مزعجة تانية.

قلت: يا الله، هو ليه مفيش حد فاهمني، هنفترض إني بخرف يا دكتور فاروق، طيب إيه دا؟! ورفعت كم القميص لأريه آثار الخدوش، ما زالت في يدي.

قال: ما هذا؟! لا تقل لي: إنها من أحلامك!!

قالها بطريقة أحسست أن أي شيء أقوله الآن لن يُغيّر شيئًا؛ لأنه مقتنعٌ أنها تهيئات، فقررت أن لا أقول شيئًا.

قلت: دي من يوم ما خرّجت مصطفى من الترعة، هو اللي خربشني بأظافره.

قلت في نفسي: هذا هو الدليل على صحة ما أقول، لا يهم أن أثبت لهم شيئًا، يكفيني أنني متأكدٌ أنها ليست "هلاوس"، وقتها هدأت.

قال فاروق: إنت استلمت شغلك في الجامعة ولا لسه؟

قلت: لا، لسه لم أذهب.

قال: هل تأخذ برأيي؟

قلت: اتفضل.

قال: عليك أن تذهب وتستلم عملك، سيغيّر جوَّك العام، هو دا المطلوب، وعليك أن ترتاح، لا تُرهق نفسك في التفكير.

قلت: مش هتكتبلي أي حاجة، مهدئ مثلًا؟!

قال: لستَ في حاجةٍ لذلك، وما دمت لا تحتاج إليه فلن ينفعك إن أخذته، بل بالعكس سيضرّك فقط.

شكرته وخرجت وأنا واثق الآن أن كل ما رأيته كان حقيقيًّا، وأنني لست مثل بطل الغرفة الحمراء، الذي كاد خوفه أن يقتله مع انطفاء كل شمعة من الشموع التي كانت حوله في الغرفة المسكونة..

كان الغروب قد ولّى، والمغرب في حضورٍ، ذهبت مشيًا وحصاني يمشي بجانبي حتى وصلت إلى المسجد، دخلت فوجدت الشيخ محمود جالسًا يقرأ القرآن، هو فقط من سيفهمني، أشرت له بأن يكمل قراءته، وجلبت مصحفًا وجلست أقرأ أنا أيضًا، ثم أُقيمَت الصلاة، وبعد أداء الصلاة وانصراف الناس من المسجد ذهبت إليه. قلت: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قال: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

قلت: حرمًا يا شيخ محمود.

قال: جمعًا، إن شاء الله.

قلت وأنا أجلس: إزيك يا شيخ محمود؟

قال: الحمد لله، اتفضل يا أستاذ أحمد، أهلًا وسهلًا.

قلت: عمي جابلك الأغراض المطلوبة؟

قال: لا، والله، لسه.

قلت: أنا هكلمه تاني.

قال: يبقى جزاك الله خيرًا يا أستاذ أحمد.

قلت: بعد إذنك يا شيخ محمود، عندي سؤال.

قال: اتفضل. قلت: هو ممكن الواحد يحلم بشيء، ويظهر شيءٌ ماديٌّ من الحلم ده في الحقيقة.

قال: مش فاهم؟!!

قلت: أنا حلمت بكذا وكذا. ورفعت الكم وأريته الخدوش.

قال: لا اله الا الله، صلِّ على سيدنا محمد.

قلت: عليه الصلاة والسلام.

قال: ليه فكرت إن الجنية في الحلم، أو الفتاة هي اللي خربشتك؟!

قلت: أُمّال إيه؟!

قال: ممكن أوي تكون إنت اللي خدشت نفسك بفعل الإيحاء.

- لقد فكرت في ذلك، ولكن كيف أعرف هذا؟!

قال: لا أعلم.

قلت: أنا أثق أن هذه الروح تريد أن تتواصل معي، تريد أن تبلغني شيئًا، أو أن تدلني على شيءٍ، أشعر أحيانًا بذلك؛ هل يوجد شيءٌ كهذا أم أنا أهلوس؟

قال: الدنيا مليانة مخلوقات، وأشياء خارجة عن الطبيعة، لا يعلمها إلا الله، هناك من أساتذتي مَنْ لا يؤمن بالنداهة ويعتبرها مجرد خرافة، وآخرون يُؤْمنون بوجودها، ويقولون: ليست النداهة، هي جنّية، وأنواع الجن كثيرة، ممكن أن تكون واحدة منهم، أما ما حكيته إنت لا أعلم كُنهه!

قلت: الناس طول عمرهم مختلفون، وخصوصًا في موضوع الأشباح والجن وهذه الأشياء؛ لأن الناس لا تحب الغموض، لا تحب الأشياء غير المفهومة، عقلهم يرفض الفكرة تمامًا ولا يتقبلها.

قال: أصبت، لكن أود أن أقول لك شيئًا.

قلت: اتفضل.

قال: لا تحكِ لأحدٍ عن أحلامك هذه، لا أحد سيصدق، وسيقولون عنك أنك مجنون، عليك أن تتجنب ذلك الآن، لابد أن يظلّوا مُصدقين هكذا؛ لكي يقفوا معنا فيما نحن مقدمون عليه.

قلت: تمام. ثم حكيت له عن الصورتين؛ القبيحة التي لا أشك لحظةً أنها من الجن، والأخرى التي لا أشك لحظةً أن لها قصةً ما، وأنها كانت من عالمنا، وإن استطعت الوصول إليها أستطيع أن أهزم الأخرى.

قال: لماذا لم تبلغ الضابط ماهر.. أنتم أصدقاء؟!

قلت: بلغته لكنه لا يصدق، يقول: خرافات، وأنا أتوهم. هنا تذكرت شخصًا يستطيع مساعدتي.. أجل؛ إنه بسيوني.

قال: رحت فين.

قلت: بسيوني سيقنع ماهر، كان عليّا من البداية أن أصطحب بسيوني معي؛ فهو صديق ماهر من سنين، وأنا واثق أنه سيصدقه.

قال: وفقك الله وحفظك، افعل ما تراه صحيحًا. استأذنت منه.

وخرجت.. لن أذهب طبعًا إلى بسيوني الآن؛ فالوقت تأخّر، سأنتظر إلى اليوم التالي، سأذهب إليه، أو إذا رأيته في صلاة الفجر سأتكلم معه، وأحكي له، وأدعو الله أن يصدقني؛ لأنه يظن أنني جننت، اللهم سدّد خُطايا، عدت إلى البيت، جلست مع أمي وأختي حتى أُذّن لصلاة العشاء فذهبت للصلاة، أتى بسيوني أيضًا، وبعد للصلاة..

قلت: تقبل الله.

قال: منّا ومنك ان شاء الله يا صديقي. وبعد أن اطمأننا على بعضنا..

قلت: بقولك إيه يا بسيوني؟!

قال: نعم.

قلت: عايز منك خدمة.

قال: أُؤمر.

قلت: عايزك تكلم ماهر في موضوع مهم بالنسبالي.

قال باهتمام: موضوع إيه؟!

قلت: في اليوم اللي أنقذت فيه مصطفى حصل سلسلة من الأحداث، كلها متصلة ببعضها..

قال: تمام.

قلت: تسمع الحكاية من الأول؟!

قال: يا ريت علشان أفهم الموضوع من الأول قبل أن أتكلم مع ماهر، أقل شيء أكون فاهم، ولا إيه رأيك؟!

قلت: تمام، صلي على النبي.

قال: عليه الصلاة والسلام.

قلت: في اليوم اللي أنقذت فيه مصطفى، لما نزلت وراه الترعة.. رأيت النداهة في المياه، ظهرت من العدم.

قال: منتا قولتلي قبل كدا!

قلت: اصبر واسمع للأخر علشان تعرف، والصورة تكون واضحة.

قال: اتفضل.

قلت: اللي أنا شوفتها، رغم عنيها الحمراء والخدوش على وجهها وشكلها المرعب؛ إلا أنها بشرية، أو كانت بشرية، ولما خرجت أنا ومصطفى من المياه كان صوتها في رأسي، ولكني لم أنصت لها؛ لأني كنت مشغول بمصطفى، وعناية الله هي من أنقذتنا في هذه الليلة، حملته وذهبت إلى البيت، ثم أخذته إلى المستشفى، وأثناء ذهابي للمستشفى كنت أرى النداهة.. نفس الفتاة بشكلها المرعب هكذا تجلس على شط الترعة وتنظر لي، وكلما تقدمت أراها في الأمام تجلس نفس الجلسة لسه، وكأنني لا أتقدم حتى ذهبت إلى المستشفى، وبعدما وصلنا وفاروق فحصه وصلناه لبيته، ثم عدت إلى البيت، ومن شدة التعب نمت، ولم أدرِ بأي شيءٍ، لكني لما استعدت وعيي كنتم كلكم موجودين.

قال: إنت كنت عمّال تهلوس، لكن لم نفهم شيئًا مما قلته.

قلت: ممكن تكون هلوسة، كنت عندما أفتح عيني أرى الفتاة واقفةً بجوار أمي وأختي ورقية، وبعدها هجمت عليّا، وكان لها مخالب كبيرة، قالت شيئًا لا أتذكره الآن، لكني قمتُ مفزوعًا.

قال: آه لحظة ما قمت مرة واحدة.. اتفزعنا وقولنا: إنك بتحلم لكن الدهشة اترسمت على وجوه كل الموجودين، واتفزعنا كلنا.

قلت: هو دا السبب، بعد كدا رأيتها مرةً أخرى في الحلم لكن تقدر تقول: كابوس.. المُلخص أنني رأيت أربعة من الشباب وكان معاهم البنت دي،

وكأنهم خاطفينها، حاولت أتدخل، لكن لم أستطع ذلك، رأيتهم يغتصبونها ثم قتلوها ودفنوها عند الساقية القديمة، وفجأةً.. المنظر اتغير؛ رأيتها واقفةً بملابسها والدم يتقاطر منها، وعندما اقتربت منها وقعت في البئر، واستيقظت.. أما المرة الثالثة..

قال: هو لسه فيه ثالثة؟!

قلت: علشان تفهم كل حاجة؛ لأني محتاج مساعدتك.

قال: حاضر، منا معاك يا صاحبي من غير ما تقول، وربنا يستر.

قلت: تمام، اِسمع بقى وبطل الخوف دا، في المرة الثالثة يوم ما كنت عندك انهمر عليّا المطر، بعدما خرجت من عندك ولا أعلم حتى الآن كيف ذهبت إلى الترعة، وكأنني غبتُ عن الوعي، وأنا أقف.. رأيت رقيةً، كانت واقفةً في الناحية الأخرى من الترعة، والصوت نفس الصوت الذي كان في رأسي؛ بأن أذهب إليها.. ناديت عليها لكنها لم تستجب لي، مع محاولتي مُجددًا لفتُ انتباهها، نظرتْ لي نظرةً، وابتسمتْ ابتسامة لا أعرف كُنهها لكنها مرعبة، ركضت ناحية الساقية القديمة، لم يكن بيدي حيلة غير أني ركضت وراءها، لا يمكن أن أتركها.

قال: وإيه اللي خرّج رقية في الوقت دا؟! نظرت إليه..

قلت: كنت أعلم أنها ليس هي، ولكني ركضت وراءها؛ لأفهم ما يجري.

قال: تقصد إنها كانت...

قلت: بالضبط كدا، كانت الفتاة نفسها أو النداهة أو أيًّا كان اسمها، أخذت شكل رقية، لكن ليه رقية بالذات؟! ممكن عايزة توصللي رسالة، لا أعلم!! لكن ما أعلمه جيدًا أن هناك شيئًا ما يحدث، وعليَّ أن أكتشفه.

قال: إنت لسه مفهمتش؟! دي النداهة، ونداديتك علشان تقتلك.

قلت: لا أظن ذلك، وإلا لكنتُ ميّتًا الآن، هي تُريد شيئًا آخر، لا أعلم ماذا؟! لكن أنا متأكدٌ من كدا.

قال: لكن أنا هأقدر أعمل إيه؟!

قلت: تقدر..

قال: كيف؟! وما تحكيه مجرد حلم.

قلت: حتى إنت يا بسيوني، ياخي صدقني، ليس حلمًا وعندي الدليل.

قال: دليل إيه؟

قلت: الإثبات إنه ليس مجرد حلم. قبل أن يتكلم رفعتُ كمَّ الجلباب، وأريته الخدوش في ذراعي على ساعدي الأيسر.

قال: ما هذا؟!

قلت: الدليل إن دا مش حلم.

رأيت نظرةَ رعبٍ حقيقية على وجهه.

قال: آمنت بالله.

قلت: من غير خوف يا بسيوني معايا وهتساعدني في الموضوع دا ولا لأ؟!

همهم بتأنٍّ وقال: إيه اللي أقدر أعمله في الموضوع المعقد دا؟!

قلت: الموضوع بسيط.. عايزك تقنع ماهر يبحث عن مَحَاضر التغيّب من ثلاثين لأربعين سنة ماضية.

قال: ليه الفترة دي بالتحديد.

قلت: لأني لمّا سألت عمي جابر والحاج علي، قالوا: إن زمان لم يكن هنا نداهة ولا غيره، والناس كانت بتبقى سهرانة قدام البيوت براحتهم، ولا فيه خوف، ولا كان فيه جرائم القتل اللي بتحصل، لكن البلد اتغيرت دلوقتي.

قال: تمام، فهمت، وأنا لدي فكرة.

قلت: قول يا صديقي، إتحفني.

قال: أنا أعرف واحد شغّال في دار القضاء العالي في قسم الأرشيف العام، هو كل ما يحفظ به من قضايا وسجلات وجرائم وكل شيء.

قلت: تمام.

قال: عمومًا.. أنا ذاهب للقاهرة بكرة شغل، وذاهب إلى محكمة النقض، يعني في نفس المكان، وإن شاء الله خير.

قلت: إن شاء الله.

قال: أعطيني بياناتها علشان أبحثلك عنها.

قلت: بيانات إيه؟!

قال: الاسم والسن، وتابعة لأنهي مركز.

قلت: أنا هأعرف منين يا بسيوني الكلام دا كله؟!

قال: يعني إنت متعرفش حاجة خالص عنها؟!

قلت: لا عارف!

قال: آه، قول..

قلت: صورتها، شكلها، أعرف شكلها كويس.

قال: لكن هذا لايكفي!

قلت: إيه رأيك آجي معاك، وأدور أنا بنفسي؟

قال: ماشي، تعالى معايا، ونشوف هنعمل إيه.

قلت: إن شاء الله، ربنا يسدد خُطانا، هتمشي إمتي؟

قال: بعد الفجر، إن شاء الله، علشان نركب القطار السريع.

قلت: تمام، هروّح أنا بقى عشان أجهز لبسي، وأنام، وبكرة إن شاء الله نصلي الفجر، ونتوكل على الله، كانت أمي تستيقظ كل يوم لصلاة الفجر، كانت مواظبة على صلاة الفجر؛ لذلك ومن أجلها لم ينقطع الخير من بيتنا، ولم يدخله الفقر أبدًا، ثم استأذنت من بسيوني، وكُلَّد منا ذهب إلى بيته، أخبرت أمي أني ذاهب إلى القاهرة غدًا، إن شاء الله.

قالت: أخيرًا يا حبيبي، هتروح تستلم شغلك.

لم أجد مَفرًّا.. ما دخل العمل الآن؟! ولا أجد داعيًا لدخول هذه المناقشة التي لا جدوى منها الآن..

قلت: آه، ذاهب لأنتهي من بعض الأوراق المهمة للتعيين، وأوقع الجواب، وأشوف هستلم إمتي؟

كان لابد أن اقول لها أي شيء؛ لأني لو تفوّهت لها بحرفٍ واحدٍ عن ما أنا بصدد القيام به، وأني ذاهبٌ لأبحث عن محاضر تغيب للجنية اللي بتظهر في البلد ستظن أني جننت، ولن تتركني أبدًا أخرج.

قالت: هتصحي إمتى؟

قلت: سنذهب، إن شاء الله، في قطار الخامسة والنصف صباحًا.

قالت: يدوب تصلي وتاكلك لقمة، وبعديها تتوكل على الله، هأبقى أصحيك.

قلت: لا، لأ يا أمي، متتعبيش نفسك، أنا متعود على الاستيقاظ لوحدي.

قالت: أنا كدا ولا كدة بكون صاحية علشان أصلي الفجر.

قلت: حاضر يا أمي.

قالت: متسهرش، ونام علشان تكون فايق ومُركّز.

قلت: حاضر هراجع بعض الأوراق، وبعديها أنام.

قالت: يا راضية!

قلت: عايزاها ليه؟

قالت: تعملك كوبًا من الشاي.

قلت: لا، أُتركيها تنام، لو أردت كوبًا من الشاي هأبقى أعمل أنا، وبعدين راضية بتحب النوم أكتر مننا. ضحكت أمي.

قالت: شغل البيت كتير عليها، غير النظافة والطيور، ومش بتخليني اعمل أي حاجة، لا هي ولا ليلى، اتجدعن إنت بقى وهات رقية، خلينا نفرح بيكم، ربنا يسعدك يابني. قبّلت يدها.

قلت: إن شاء الله، أُدخلي إنتي ارتاحي.

قالت: تصبح على خير.

قلت: وانتي من أهله.

دخلت غرفتها، ودخلت غرفتي، جلست على مكتبي، أخذت كتابًا في علم النفس، وظللت أقرأ فيه حتى شعرت بالنعاس، لا أعلم كم كانت الساعة، لكني أطفأت الإضاءة، وارتميت في أحضان سريري، وغصت في نومٍ عميقٍ حتى شعرت بأقدامٍ تتحرك نحوي، فتحت عيني، جاءت أمي لتوقظني -كان قرآن الفجر يُتلى بصوتٍ جميلٍ والتواشيح، كنت أعشقها وأعشق سماعها في هذا الجو الهادئ ونسمة البرودة تلمس جسدك الدافئ- رأتني مُستيقظًا.

قالت: صباح الخير يا حبيبي.

قلت: صباح الخير يا أمي.

قالت: قوم يلّا يا حبيبي، أنا سخنتلك المياه للاستحمام، وفي هذا الوقت لم يكن قد انتشر السخان مثل هذه الأيام، قمت واستحممت وبدلت ملابسي، وخرجت لأصلي الفجر، كان الجو شديد البرودة، ثم عدت إلى البيت، كان الفطور جاهزًا، جلست أنا وأمي، وراضية نائمة طبعًا.

قالت: اِرتدي ملابس تقيلة عشان تدفيك، الجو شديد البرودة اليوم.
قلت: هألبس الجاكيت -كان لدي بعض الجواكت الإيطالية، قد جلبتها معي عند عودتي من السفر، هذه الجواكت تُدفئ جسدك ولو كنت في وسط الجليد- سأرتدي واحدًا. وأخرجت معطفي الأسود الطويل حتى الركبتين؛ يجعلني أنيقًا، حيث إنني عاشقٌ للّون الأسود، وجلست لأتناول فطوري، صبّت أمي الشايَ في الكوب، فعلًا صوت محبب للنفس والسمع، والطعمية أو الفلافل ذات الرائحة الخلابة، تستطيع أن تشمها ولو كنت في المريخ، رائحةً ذكيةً، والفطير والرقاق والقشطة وبيض الدجاج البلدي في الزبدة البلدي، العجيب في الأمر أن النساء تخرج لا يحصل لهم شيء، وكأن النداهة بينها وبين الرجال ثأر، أو حَسِبَتْ نفسها حارسةً للنساء، أكاد أُجن من هذه الجنّية.. على مرّ التاريخ ستبقى المرأة لغزًا، لا يستطيع الرجل أن يعرف حلَّ هذا اللغز المُعقد جدًّا، سبحان الخالق، لا نستطيع أن نعيش بدونهم، تكون حياةً مُملّةً؛ فهن المؤنسات الغاليات، وبعد أن انتهيت من فطوري في هذا الجو الهادئ والبرودة اللذيذة، مع دفءِ سخونة الطعام والشاي؛ دبَّ النشاط في جسدي، كنت في غاية الأناقة والوسامة، خرجت من البيت تصاحبني دعوات أمي، ذهبت إلى بسيوني وجدته لا زال يتناول فطوره، دعاني للفطور.
قلت: باقي على القطار ربع ساعة فقط، وأنت ما زلت تفطر!

قام وحمد الله، كان جاهزًا؛ ارتدى جاكيت البدلة فقط، وفوقه جاكيت رمادي.

قال: من أين جئت بهذا. مُشيرًا إلى مِعْطَفي؛ ضحكت.

قلت له: من إيطاليا، هيَّا يا بسيوني، تأخرنا. أخذ في يده حقيبةَ يدٍ وشمسية، نظرت ليه..

قال: لتحميني من المطر.

قلت: متجيب سندوتشات معاك بالمرة، هيّا يا بسيوني سيفوتنا القطار. خرجنا.

قال في تؤدة: سمعت إن فيه مطر في القاهرة، والجو برد جدًّا. لم أردّ ونحن نمشي، محطة القطار لم تكن بعيدةً مع الدخان الذي يخرج من أفواهنا، كنت أستغرب من هذا الدخان الذي يخرج من فمي، وكلما انخفضت درجات الحرارة زاد الدخان، والحقيقة أن هذا بسبب الماء الغازي، وهو غير مرئي لكن عندما يحدث التكثيف يتحول إلى جزيئات صغيرة من الماء السائل؛ ليظهر على هيئة بخار، ويحدث ذلك بسبب امتلاء الرئتين بالهواء الرطب، الذى يتحول إلى بخار ماء؛ يخرج من الفم، كنت أعشق هذا الجوَّ، لكن ما كنت أكرهه في الشتاء أن الأرض تكون طينيةً زلقةً، ممكن أن تتحول أناقتك في لحظة إلى رجل الطين حيث تنزلق وتنقلب رأسًا على عقبٍ، وتتسخ جزمتي التي أرتديها، تجعل أناقتك غير كاملة، وصلنا المحطة، أخذت أنظف جزمتي؛ مما حملت من

الطين حتى جاء القطار، وركبنا الظلام يسود القطار، لا يوجد إضاءة، جوٌّ ليس دافئًا نظرًا لبعض النوافذ المُحطّمة، ونسمة الهواء التي تمر منها تلفح جسدك بالبرودة، لكن عندما تجلس تشعر بالدفْ سريعًا، القطار يأخذ من ساعتين ونصف الساعة إلى ثلاث ساعاتٍ، من بلدنا إلى القاهرة، ثم أخذنا الترام، كان المترو تحت الإنشاء، لم يكن قد عمل بعد، وذهبنا إلى دار القضاء العالي، ثم إلى محكمة النقض أولًا.

قال بسيوني: لن نجد أحدًا في الأرشيف! الآن سينتهي العمل! ولما ذهبنا إلى الأرشيف كان لدينا متسع من الوقت والحمد لله، أجلسني بسيوني مع عم محمد بتاع الكانتين إلى أن يعود هو... كنت أخرج أتمشى هنا وهناك، كنت مبهورًا بالتشييد الإيطالي وزخارف المبنى؛ تحفة فنية، والأعمدة، والصالات الواسعة، ومبانيه الفخمة العالمية الكلاسيكية، التي تشبه القصور، وأشهرها قاعة عبد العزيز باشا فهمي، قاضٍ ومحامٍ وسياسيٌّ، وشاعر مصري من أعلام الحركة الوطنية المصرية، أعجبني تصميمها، وفي الاستراحات كنت أرى الوجوه، وجوهًا حزينةً مُتوترةً، ووجوهًا فرحةً باسمةً، وفي المحاكم آلاف العبر والقصص، حدِّث ولا حرج، مرت ساعة حتى مللت، ثم ذهبت لأبحث عن بسيوني، لأذهب أنا إلى الأرشيف، في حين ذهب هو ليُنهي عمله هو الآخر، لكني لم أجده، عدت إلى عم محمد.

قال: إن بسيوني جاء ليبحث عني، وذهب الآن. أخذنا نصف الساعة حتى تقابلنا، كان هو في الطابق العلوي، وأنا وقفت في انتظاره.

قلت: شكرًا يا عم محمد. وحاسبت على المشروبات في البداية، لم يوافق؛ لأن بسيوني قال له ذلك، ولا يريد؛ لأن بسيوني هيزعل منه وهو يحبه، لأن بسيوني يعامله معاملة حسنة وكأنه ابنه، ومع إصراري وافق، وسمعت صوت بسيوني يُنادي: يا أحمد يا أحمد! نزل من السلم.

قال: رحت فين؟! عمّال أدور عليك من ساعة.

قلت: ساعة إيه يا بسيوني؟! عم محمد قالي إنك لسه كنت هنا دلوقتي!

قال: وحياة الأخوة بقالي ساعة.

قلت: في المحكمة ومحامي، وبتحلف بحياة الأخوة، أُمّال لو قاعدين على القهوة كنت حلفت بإيه؟!! قهقه بسيوني.

قلت: اِضحك اِضحك. ظل يضحك، وكأنه لا يريد أن يصمت، قلت: يلّا يا بسيوني، هنقضي اليوم كله ضحك؟! يلّا علشان منتأخرش.

قال: اِنتظر لأحاسب عمي محمد.

قلت وأنا أجذبه من ذراعه: يلّا يا بسيوني، أنا حاسبت.

قال بعصبية: ليه يا عم أحمد.. قاطعته.. واحد يا بسيوني يا حبيبي، شايلك للثقيلة، وخرجنا حتى ذهبنا إلى المبنى الرئيسي، ونزلنا إلى قسم الأرشيف، مكاتب بجوار بعضها، سأل بسيوني أحدَ الموظفين: هو مكتب الأستاذ شافعي فين؟

قال: في الممر على اليمين، الغرفة الثالثة. شكره بسيوني، دخلنا الممر، يوجد به بعض الناس، منهم من ينتظر أمام الغرف، ومنهم من يخرج، وهكذا، دخلنا الغرفة، يُوجد بها مكتبان، والكثير جدًّا من الفايلات بداخل الدولاب وفوقه، مبعثرة في كل مكان خلف المكاتب وفوق المكاتب.

- قلنا: السلام عليكم ورحمة الله.

قام شخص بدين: عليكم السلام.

ويمط فيها: أستاذ بسيوني عندنا! يا مرحبًا يا مرحبًا.

تصافحوا بالأيدي، وتعانقوا.

قال الأستاذ شافعي: فينك يا راجل، لم أركَ منذ مدةٍ طويلةٍ.

قال بسيوني: والله يا أستاذ شافعي، ومالك عليَّا حلفان، على طول أنا في البلد، ومش بقعد هنا كتير، ويوم ما أنزل القاهرة أخلص شغل وأروح على طول، إنت عارف بقى المواصلات، وعلى كدا آجي وأرجع البلد تاني.

قال: أيوة يا عم، أنا لو من الأرياف لن أجلس هنا، سأظل جالسًا هناك في وسط الخضرة والغيطان والهواء النقي. ومصمص بفمه مُتخيلًا: يا سلام على الأرياف وجمالها. كان يبدو ظريفًا وهو يقولها. ضحك بسيوني وقال: أعرفك على صديقي الدكتور أحمد، ودا الأستاذ شافعي، اللي حكتلك عنه.

صافحته وعزم علينا بالجلوس.

قال: تشربوا إيه؟

قال بسيوني: ملوش لزوم، إحنا عايزينك في طلب على السريع كدا وماشيين..

قال: والله ما ينفع، لازم تشربوا حاجة.

قال بسيوني: أي حاجة على زوقك يا أستاذ شافعي. ونده الساعي، وطلب ثلاثة من المياه الغازية، ثم نظر ناحيتي قائلًا: هو حضرتك دكتور في إيه؟

قلت: نعم؟!

قال: حضرتك دكتور في إيه.. باطنة مثلًا؟

قلت: لا، دكتور في جامعة (القاهرة).

قال: آه يا أهلًا وسهلًا، يبدو أنه يعاني من مشاكل في المعدة، وكان يتمنى أن أقول له: إنني دكتور باطنة.. لينهال عليَّا بالأسئلة والاستشارات، ولكني خيبت ظنه.

قال بسيوني: كنت قاصدك في طلب يا أستاذ شافعي.

قال: من عنيا الاتنين، إنت تؤمر يا أستاذ بسيوني.

قال: كنا بندور على قضية تغيّب، وعايزين نشوف الملف بتاعها.

قال: بس كدا، من عنيا، رقم القضية كام؟

قال: لا، هي قضية قديمة شوية.

قال: يعني مش معاك الرقم، طيب الاسم؟

قال بسيوني: لا، منعرفش الاسم.

قال بسيوني: يا أستاذ شافعي، إنت هتورينا الملفات، وإحنا هنراجع ونشوف الملف، ودي الخدمة؛ لأننا منعرفش غير الصورة.

قال شافعي: إنت عارف إن دا مخالف للقانون يا أستاذ بسيوني!

قال: ما البركة فيك، أصل الموضوع دا حياة أو موت، حياة ناس متوقفة على قضية قديمة، لكن منعرفش أي معلومات عن صاحبة القضية دي.

قال: القضية دي من إمتي؟

قال: من تلاتين لأربعين سنة.

قال: يا خبر!! يعني إنت عايز تراجع قضايا تغيّب من تلاتين لأربعين سنة فائتة؟!!

قال: يبقى كتر خيرك، والله وعملت معانا واجب.

قال: ربنا ييسر، هحاول. خرج قليلًا ثم جاء: قال: الموضوع صعب، فيه قضايا كتير أوي، دنتم كدا هتعملوا جرد للأرشيف كله، ولو حد اكتشف الموضوع ده هنروح في داهية.

قال بسيوني: علشان نسهل عليك موضوع البحث دا، اللي بنبحث عنها فتاة في العشرين لاتنين وعشرين سنة، في العمر دا.

قال: يا أستاذ!! متلخبطنيش.. هي من عشرين سنة ولا من أربعين؟!!!

قلت: يا أستاذ شافعي، هيّا البنت لما اختفت كان عندها عشرين سنة، لكن اختفت من أربعين سنة.

قال: آه، متقولوا كدا، خلينا نشوف، ثانية واحدة. ورفع سماعة الهاتف وضرب رقمًا داخليًّا..

قال: إزيك يا عمي مسعد، والنبي يا حاج كنا عايزين ندورعلى قضية تغيّب.. صمت قليلً، ا قال: لا، لا، مش عارفين أي معلومات عنها، عمومًا أنا هابعتلك ابن خالتي هو هيقولك.. هنتعبك معانا يا عم مسعد..... تسلم... وضع سماعة الهاتف قال لبسيوني: اذهب إلى هناك وفهّمه الموضوع، وهو هيساعدك.

قال بسيوني: فين المكتب؟

قال: هتكمل الممر يمين في آخر شمال، نهضنا وشكره بسيوني، كانت الساعة الحادية عشر والنصف، خرجنا وذهبنا إلى الغرفة المطلوبة، مكتب كبير، ورجل عجوز، شعره أبيض، يرتدي نظارةً وبقية الغرفة أرفف مليئة بالفايلات المرتبة.

- السلام عليكم ورحمة الله.

قال: عليكم السلام ورحمة الله.

قال بسيوني: عمي مسعد!

قال: اتفضل يابني. دخلنا.

قال بسيوني: جئنا لك من طرف الأستاذ شافعي، هو كلم حضرتك في التلفون دلوقتي.

قال: آه أهلًا وسهلًا، قصصت عليه الحكاية تمامًا كما قلتها للأستاذ شافعي.

قال: هي قريبتك؟!

قلت: آه، قريبتي من بعيد.

قال: تمام، تمام، إن شاء الله تلاقيها، لكن يعني سيبينها السنين دي كلها، وتريدون البحث عنها الآن.

قلت: ما هو مظهرش أي حاجة عنها غير دلوقتي. ابتسم ابتسامة وكأنه يقول: أخيرًا! هناك قصة نتسلى بها.

قال: إن شاء الله، تعثر عليها، لكن دي تلاقيها عجوزة دلوقتي.

قلت: نلاقيها الأول يا عم مسعد، وهمتك معانا، ويبقى عندها ستين أو مائة عام حتى، لا فرق، المهم أن أجدها.

قال: هي اسمها إيه؟

قلت: لا أعرف اسمها، لكن أعرف شكلها جيدًا.

قال: إنت مش بتقول قريبتك!

قلت: آه يا عم مسعد، هي مش قريبتي، لكن أنا اعتبرتها قريبتي.

قال: اسمع يا جدع إنت، وهو مش هبحثلكوا عن أي حاجة غير لما تفهموني الموضوع.

قال بسيوني: ليه بس يا عم مسعد؟!

قال: أسرار ناس ولازم تجيب إذن من النيابة؛ إنك تتطلع على الملفات، إنما لو الحكاية تستاهل ممكن نمشيها، لكن أفهم الأول كل حاجة، ومساعدة مني لوجه الله لو الموضوع يستاهل. اضطررت وقتها أن أُؤلف له قصةً من الخيال.

قلت: أنا عندي في البيت ست عجوزة، وجدتها في الشارع، وهي لا تذكر شيئًا، لا اسمها ولا عائلتها، ولا أي شيء، غير إنها معاها صورة ليها وهي صغيرة، وقالت: إنها تاهت، ولاتعرف شيئًا، لا مَنْ هي، ولا مِنْ أين جاءت، وأنا أريد مساعدتها لله يا عمي مسعد.

قال: لا، ما دام الحكاية كدا يبقى تمام، نبحث عنها إحنا في ورقنا. وفتح دفترًا كبيرًا قديمًا، مكتوبٌ عليه ملفات جنائية، وظهر عدة أسماء مرتبة، عرضت عليه أن يرتاح هو؛ لبطء حركته، وأن أبحث أنا.

قال: تعالى. دخلنا الصف الثالث من الرفوف مليء بالملفات غير المرتبة، قال لي: ابدأ من هنا. وأشار من جهة اليمين.

قلت في نفسي: أريد شهورًا عقبال ما أخلص فرز الملفات دي!!

قال: لا تفكر كثيرًا، وابدأ الآن عقبال ما أعملكم شاي.

ذهب هو عند بسيوني، أنزلت بعض الملفات على الأرض وجلست أبحث بينهم، أول واحد.. سنية إبراهيم، رقم المحضر ٢١٢ متغيبة عن المنزل، عشرون عامًا، العنوان..... محافظة.... منطقة كذا شارع.... إلخ. ليست

هي من صورتها، قررت أن أبحث بالنظر في الصورة فقط؛ لأسرع عملية البحث بأكبر قدر ممكن من الملفات، وهكذا فتحت الثاني والثالث والرابع.... إلخ. وبسيوني وعم مسعد اندمجوا في الكلام مع بعضهما، دخل الساعي يحمل ثلاثة أكواب من الشاي، شكره عمي مسعد الراجل الطيب، أنا كنت مُنهمكًا في البحث، كنت أبحث في الفايلات بأسرع ما يمكنني نظرًا لكثرة الملفات التي أمامي.. أفتح الفايل، أنظر للصورة، ليست هي.. أقفل الملف، وأضعه مع إخوته وهكذا، أعطاني عم مسعد الشاي قائلًا: إن شاء الله هتلاقيها، إشرب الشاي الأول قبل ما يبرد.. شربت الشاي وأنا أبحث حتى مرت ساعتان ولم أشعر بالوقت!

قال بسيوني: ياحمد كفاية كده النهاردة، نكمل وقت تاني علشان بيخلصوا شغل الساعة اتنين ونص.

قلت: قربت أخلص أهو يا بسيوني، معلش يا عم مسعد.

قال: دنتم ونستوني النهاردة، أنا بقعد لوحدي كل يو... وشرع يشرح لبسيوني وبدأ صوته يتلاشى باندماجي مرة أخرى مع الملفات حتى وصلت لفايل رقم ٥١٤ باسم: سارة محمود حسين، فتحت الفايل يوجد به صورتان، لا يمكن أن أخطأ في ملامحها، كانت هي الفتاة التي كنت أراها سارة محمود حسين، السن ٢١ عام، طالبة جامعية في السنة الدراسية الثالثة، متغيبة.. وقفلت القضية لعدم توافر الأدلة في الأسفل، اسم المشتكي: محمود حسين، الرقم القومي... والعنوان....

وفي النهاية بجوار الختم أحدهم كتب: لم يتم العثور عليها... إذًا كانت تريد أن أجدها لكن لماذا أنا؟!! لم أشعر أنني غبي كمثل هذه اللحظة، لا أستطيع التفكير جيدًا، بحثت عن ماكينة تصوير لا يوجد، سألت عمي مسعد.

قال: في المكتب التاني، ليه؟ لقيت الملف.

قلت: آه، وجدتها، الحمد لله.

بدت علامات الدهشة على بسيوني، قال في تؤدة: لقيتها بجد!

قلت: آه، الملف أهو عايز أصوره.

قال: الماكينة في الغرفة الثانية.

دخلت صورت الملف كله ثم عدت إلى المكتب، أخذ بسيوني الورق من يدي، وشرع في القراءة، ثم جلس على الكرسي، وعلامات الدهشة تزداد على وجهه.

قال: يعني إيه؟! أنا مش فاهم حاجة!

قلت: قوم يا بسيوني نمشي وهفهمك كل حاجة.

قال: يعني إنت ياحمد، كل اللي قولتله صح من الأول؟!

قلت: يلّا يا بسيوني.

قال: حاضر.

شكرنا عمي مسعد، وأخرجت من جيبي خمسة جنيهات لأعطيها له، كانت قيمتها عاليةً جدًّا وقتها، لكنه رفض أن يأخذها، ذهبنا إلى الأستاذ

شافعي وشكرناه أيضا، وتعجب من أننا ما زلنا هنا، وعزم علينا أن نتناول الغداء معًا، ولكننا رفضنا، لا أريد إضاعة الوقت، ثم ذهبنا في طريقنا للعودة، جلست في القطار أقرأ الملف، ظللت هكذا حتى حفظت بياناته، أخذه بسيوني، وظل يقرأ وهو مندهش.

قال مُستطردًا: هي دي بقى "النداهة"، لكن إزاي كنت شاردًا؟! سارة محمود حسين، يا ترى ما قصتك إنتي؟ ولماذا أنا؟ أشعر بإحساسٍ غريب لا يُطمئن، غير أنني لا أعرف ما هي الخطوة القادمة، ظللت هكذا حتى وصلنا، نزلنا نتمشى، عائدين إلى البيت.

قال بسيوني: أنا مش هطلع من البيت تاني.

قلت لأرعبه قليلًا، على سبيل المزاح: متطلعتش يا بسيوني أحسن، علشان لو خرجت مش عارفين النداهة ممكن تعمل فيك إيه؟

قال: وأنا مالي يا خويا، أنا عملتلها حاجة؟

قلت: مالك إزاي يعني عمّالين ندور وراها وننخور هنا وهناك وعايزها تسيبنا.

وقف بسيوني.. كان ينظر إلي في غيظٍ، يلومني وأنا أمسك نفسي من الضحك على شكله.

قال: إنت بتتكلم بجد يا أحمد؟!

قلت: بجد إيه طبعًا بهزر.

قال: الله يخرب بيتك. انفجرت ضاحكًا حتى لم أستطع التحرك، كدت أسقط مكاني، تركني أضحك وذهب... ذهبت لألحق به.

قلت: بسيوني متبقاش عامل زي العيال الصغيرة ياخي.

قال: ياحمد هي دي كمان فيها عيل صغير وراجل كبير، دي بتنده أي حد!

قلت: متخافش يا جبان، أنا بهزر معاك، لكن الموضوع حقيقي معقد ومحتاجك معايا.

قال: أنا معاك، لكن لو جرالي حاجة مش مسامحك.

قلت: خليها على الله.

وصلنا إلى المزلقان، فجأةً سمعت صوتًا في رأسي، التفتُ حولي لا يوجد شيءٌ.

قال بسيوني: فيه إيه؟

قلت: مفيش حاجة. سمعته مرة أخرى لكني لم ألتفت، هل عادت إليَّ التهيئات مرةً أخرى أم أن هناك من يريد لفت انتباهي، كانت الساعة السادسة مساءً، وبدأ الليل يخيم علينا، سألت بسيوني: هل سمعت ذلك؟!

قال: لا، لم أسمع شيئًا، سمعت الصوت مرةً أخرى، ولكني حددت من أين أتى هذه المرة، وماذا قال؟! لقد قال: مصطفى. وقفت.

قال بسيوني: فيه إيه ياحمد؟

قلت: الصوت سمعته.

قال: صوت إيه؟ لم أسمع شيئًا!

قلت فيه صوت بينادي من عند الساقية، أقسم أنني سمعته.

قال: امشي ياحمد، خلّينا نروّح، بالله عليك متخوفنيش.

قلت: بتتكلم بجد يا بسيوني!

قال: تلاقيها تهيئات.

عبرنا من فوق المزلقان، ودخلنا من شارع جانبيٍّ مختصر إلى البيت، لا يوجد أحد في الشوارع إلا بعض الأشقياء، يجلسون في أماكن معينة جلستهم المفضلة، حتى وصل بسيوني إلى بيته، وذهبت أنا أيضًا إلى بيتي، ولم ألاحظ أنني نسيت خطيبتي رقية في الأيام السابقة، لم أذهب إليها، ولم أرها، انشغلت عنها، عندما دخلت البيت..

قلت: السلام عليكم ورحمة الله. قلت لأمي وإخوتي.

قالوا: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

قبلت يدي أمي، وكنت جائعًا حقًّا، لقد أكلنا بعض السندويتشات من مطعم مشهور بطبق الفول بجوار الأرشيف، ولكن أكل المطاعم شيءٌ، والطبخ البيتي من يد أمي شيءٌ آخر، بدّلت ملابسي، وضعوا الطعام، وجلسنا، رائحة الطعام تفوح منه رائحة السمن البلدي، أعشق هذه الرائحة الطيبة، ورائحة البط المحمر والأرز المعمر؛ تنعش حاسة الشم عندي، بدأت ألتهم طعامي.

قالت راضية: عملت إيه النهارة يا دكتور؟

قلت: الحمد لله خلصت الورق اللي كنت رايحله، وأعطيته لعمادة الكلية، فكرت أن أقول الحقيقة لكن.. أحيانًا خوفنا على اللي بنحبهم وحرصنا على أن نشعرهم بالطمأنينة يجعلنا نخفي الحقيقة؛ لأنها قد تكون مؤلمةً، عندما أكذب أشعر بأنني أحمقٌ.

قالت أمي: يعني اتعينت ولا إيه؟

قلت: خلاص يا أمي، هانت، مجرد إجراءات فقط، وتكلمت معهم بخصوص النقل لكنهم لم يوافقوا؛ لحاجتهم لي، قالوا: سننظر للأمر ونبلغك... أدهم لم يأتِ اليوم؟

قالت راضية: اسكت مش مصطفى صاحب أدهم أخوك كان هيهرب من البيت إمبارح بالليل، لولا مراته صوتت والناس اتلمت ومسكوه كان زمانه دلوقتي ميت، لولا لطف ربنا بيه.

شردت مُنغمسًا في تفكيري.. مصطفى.. الصوت.. لقد نسيت مصطفى، واضح إن موضوع البحث عن الفتاة وانشغالي أنساني أشياءً كثيرة، ولم نكمل كلامنا، سمعت أحدًا ينادي عليَّ، قمت لافتح الباب؛ فاذا هو ماهر.

قلت: أهلًا وسهلًا يا ماهر باشا، اتفضل. صافحته ودخلنا غرفتي... قلت لأمي؛ أن تحضر لنا كوبين من الشاي.

قال ماهر: مش لازم ياحمد.

قلت: لا، لازم تشرب حاجة.

قال: أنا هامشي علشان عندي شغل، ولا أريد أن أتأخر، أنا جايلك في حاجة ضروري.

قلت: خير إن شاء الله.

قال: مش هينفع هنا، تعالى نقعد شويه في المكتب عندي علشان نعرف نتكلم.

قلت: قلقتني يا ماهر فيه إيه؟

قال: بخصوص الصور اللي إنت سيبتهم عندي.

قلت: مالهم؟!

قال: وجدنا بنتًا شبه البنت اللي إنت رسمتها واسمها.. قاطعته قائلًا: سارة محمود حسين.

هنا ارتسمت علامات اندهاشٍ على وجهه، وصمت، ثم قال في تؤدة: كيف عرفت؟! وقام واقفًا.

قلت: اِجلس هفهمك.

- لا شكلك عندك كلام كتير، وأنا كدا هتأخر، تعالى معايا يا سيدي، هوصلك في الرجعة، وبالمرة نجمع المعلومات اللي عندك على المعلومات اللي عندي.

قلت: حاضر هأبدل ملابسي وآجي. بدلت ملابسي في غرفةٍ أخرى، عندما ذهبت إلى غرفتي..

كان يشرب الشاي، والملف كان في يده يقرأه قال: أنا آسف، كان على السرير، والفضول خلّاني أقرأه.

قلت: ولا يهمك، أنا كدا كدا كنت هعطيهولك علشان تشوفلي العنوان بتاع اسم الشاكي.

قال: لاحظت إن العنوان غير صالح، مكتوب علامة الإكس، وجملة العنوان "ملغي"، ولا يوجد عنوان جديد.

قلت: يعني فيه أمل؟

قال: طبعًا، حتى لو عزّلوا هنجيبهم، لكن أهم حاجة يكونوا عايشين، يلّا بينا.

خرجنا وركبنا السيارة، كان معه أحد العساكر يقود السيارة ينتظره، ذهبنا إلى المركز، دخلنا المكتب..

قال: اتفضل إجلس لغاية أما آجي، دقيقتين فقط، كنت أدور بعيني في المكتب.. وجدت ملفًّا على المكتب مكتوبٌ عليه "هام" بخط كبير.. وتحت "جنائي"، فتحته وجدت بلاغَ تغيّب اللي هو محضر تحقيق، وبعض الأوراق الأخرى.. شهادات، مؤهلات، وشهادات ميلاد، وصور، وقيد عائلي، وبعض الصور من قضية خطف تاريخ قديم، وبعض الأسماء، ظللت أقرأ.. أتى ماهر لم يغِب، أتى ومعه زجاجتان من المياه الغازية.

قال: اتفضل.

قلت: شكرًا.

قال بصوت رتيب: قولي بقى يابو حميد، جبت الورق دا منين؟

قلت: ذهبت أنا وبسيوني للأرشيف وطبعنا منه صورة.

قال: آه منك إنت وبسيوني، تعبتني وخلاص، كنت فاكر إني مش هجيبلك المعلومات اللي إنت طلبتها؟!

قلت: لا والله أبدًا، لكن محبتش أتعبك.

قال: المهم، نويت على إيه؟!!

قلت: يعني إنت دلوقتي مصدقني؟!

قال: كلامك لغاية الآن صحيح، أنا الحقيقة لم أكن مُصدقًا لمثل ذلك من الأخبار، لكن الصورة اللي رسمتها إنت كانت ملامحها في غاية الوضوح، أرسلتها في اليوم التالي للرسام الجنائي وللفحص، لمّا بلغوني إنها شبه من فتاة تغيبت عن المنزل من أربعين عام، ولم يستدل عليها طلبت الملف بتاعها، وكنت عايز أعرف منك.. لو عندك معلومات تانية علشان بحاول أفتح القضية تاني.

قلت: مش هيفيد بحاجة فتحها، فات سنين كتير جدًّا حتى لو اللي في دماغي صح.

قال: إيه اللي بتفكر فيه؟

قلت: يعني لو فيه حد من اللي قتلوها عايش هيكون عنده واحد وستون سنة، دا لو افترضنا إن الشباب دول وقتها كان عندهم واحد وعشرين سنة، مش أكبر من كدا.

قال: ولو عندهم مائة لازم ياخدوا جزاءهم.

قلت: أنا مش دا المهم عندي.

قال: أُمّال إيه المهم؟

قلت: الروح دي بتستغل من قبل الجنية في القتل، لو قدرنا نلاقي الجثة أو المتبقي منها، دا طبعًا إن تبقى من العظام شيءٌ؛ لطول هذه السنين، هنقدر نفصلهم عن بعض، وقتها نستطيع بإذن الله أن أرسل كلًّا منهم إلى حيث ينتمي.

قال: أنا مش فاهم حاجة؟!

قلت: أنا أريد منك شيئًا واحدًا.

قال: اتفضل.

قلت: أريد أن أصل إلى أحد من عائلتها.

قال: بكرة إن شاء الله هبلغ المديرية، واللي ربنا عايزه هيكون، وهأبحث عنهم لغاية ما ألاقيهم.

قلت: إن شاء الله، والباقي خلّيه عليّا، ربنا معانا.

تسامرنا قليلًا ثم أوصلني بالسيارة إلى منزلي، دخلت البيت، جلست على مكتبي؛ لأدون كل ما توصلنا إليه، وصلت عند الهيكل العظمي وتساءلت.. هل ممكن بعد أربعين سنة ألا يتحلل الجسم، بعد كل هذه المدة، أتذكر علم التشريح جيدًا، لقد درست أن العظام تتحلل بسرعة، وبطرق معقدة علميًّا، إبداع الخالق سبحانه، ولكن هذا يكون على حسب

الجو والمناخ والتربة، مثلًا في التربة الثلجية ممكن ألا تتحلل الجثث إلى مالا نهاية، في التربة الجافة نفس الشيء؛ هل ممكن أن تكون مدفونة في نفس المكان في الحلم الذي حاولتْ أن تلفت انتباهي له أكثر من مرة، لا أعلم، ولكن سوف أتأكد من ذلك بنفسي، الساعة الآن الحادية عشرة ليلًا، لم يعد لدي من الصبر ما يجعلني أنتظر حتى الصباح، ولا أستطيع الجلوس ولا النوم، أتمشى ذهابًا وإيابًا في غرفتي حتى سمعت صرخاتٍ ودَوْشةً شديدةً في الشارع، خرجت.. كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، وجدت شبابًا واقفين في الشوارع، سألت أحدهم قال: واحد النداهة نداته.

قلت: مرة أخرى، ولكن هل تعرف اسمه؟

قال أيوه: اسمه مصطفى.

قلت: مصطفى، لا حول ولا قوة إلا بالله!

وجدت بسيوني يخرج من باب البيت، عليه علاماتُ من قام مفزوعًا من نومه، جلسنا على المصطبة الطينية.

قلت: قوم يا بسيوني تعالى معايا.

قال: آجي فين؟!

قلت: نلقي نظرة، نشوف إيه اللي حصل؟

قال: انتظرني، سأرتدي ملابسي، وآتي معك.

أنا أقف في انتظار بسيوني، جاءت سيارة الشرطة، وقفت بجانبي، نزل ماهر.

قلت اماهر: إيه اللي حصل تاني، البلد مقلوبة كدا ليه؟

قال: مصطفى ضرب مراته وهرب، ولا أحد يعرف إلى أين ذهب؟

قلت: تعالى نروح الساقية أكيد هناك.

قال: للأسف لسه راجعين من هناك، لا يوجد أحد.

قلت: يعني إيه!! هنفضل قاعدين ونسيب الراجل يموت!

قال: إن شاء الله هنلاقيه.

قلت: مش هستني للصبح يا ماهر، وفكرت قليلًا وركضت ناحية الساقية، هناك أحد يُنادي عليَّ بنبرة تشق الظلام، مررت من فوق المزلقان، كان الفلاحون يتركون أدوات الحرث.. الفأس وما شابهها، في الأرض، أخذت الفأس وعلى ضوء القمر وصلت إلى المكان المنشود، وكانت تأتي أمام عيني لقطات من كل ما حدث في الأيام الماضية، وبدأت الحفر مع كل خبطة، الصور تتسارع وصوت صراخها.. الشباب، السيارة، حين قتلوها.. الجنية، لقطات سريعة، نبضات قلبي تتسارع، تلاشت الصور حين خرجت صرخة من البئر، أوقفتني، لا يوجد صوت، تركت الفأس واقتربت قليلًا، سمعت همسًا يأتي من البئر، تحركت نحوه ببطءٍ شديد، يكاد قلبي ينخلع من مكانه من الذعر، وإذا بي أسمع صوتًا: ياحمد... ارجع ياحمد.

أعرف هذا الصوت، أقترب من البئر، أتقدم خطوةً للأمام، وأرجع خطوةً للخلف، تجمد الدم في عروقي، والصوت يقترب أيضًا حتى دنوت من البئر.. الظلام دامس.. ولكني أرى شيئًا في البئر.. إنه مصطفى، لست متأكدًا؛ لأن البئر مظلمٌ، ولم يكن معي إضاءة، هذا هو الحماس الزائد أحيانًا؛ يوقعك في مأزقٍ، لأنك لم تفكر في العواقب، لا أتبين ملامح من في البئر، جاء الصوت من خلفي، التفتُّ بسرعة، إنها رقية كانت تركض.

قلت: رقية؟!! ولكن هل هي رقية حقًّا أم أنها...

قالت: أحمد بتعمل إيه هنا؟!

قلت: جئت لأنقذ مصطفى.

قالت: ومصطفى بيعمل إيه هنا؟ وابتسمت ابتسامةً لم أرها تبتسم بجانب فمها أبدًا مثل هذه، شعرت بالرعب يسري في جسدي.. تذكرت شيئًا في السيكولوجي لأبحث عن العلامات.. رقبتها... الظلام.. لم أرَ جيّدًا لكن عيناها لا ترمش.

قلت: رقية! ماذا قلت لكي في الغرفة يوم الخطوبة؟

قالت بنفس الابتسامة الغامضة: بتختبرني؟! هو دا وقته.

قلت: لا أختبرك، ولكنها جملة مهمة.

قالت: قلتلي إنك عايز تجيب الطقم أحسن من الدهب؛ لأنك مش بتحب الدهب.

قلت: صحيح.. واقتربت منها: إيه اللي جابك هنا يا رقية، إنتي اتجننتي تعالي، اقتربت كانت حافيةً ها هي اقتربت مني، كنت سأعانقها حتى وضحت الرؤية.. ما هذا؟!!! خدوش على رقبتها، وعلى فمها ابتسامة مرعبة، ما هذا؟!! إنها.... وقبل أن أكمل دفعتني إلى البئر، شقهت وأنا أسقط، أنا أتهاوي في البئر، وأنا أنظر إليها وهي تبتسم حتى لمست المياه الباردة جسدي، الماء شديد البرودة حتى لو كنت مُخدرًا ستشهق حين يلمس هذا الماء جسدك، وقفت على قدمي بسرعة، ولم تشغلني برودة الماء، كان يشغلني هذا الشيء اللعين، هناك شيءٌ يجذبني للأسفل أنا أقاوم، ما زلت أقف على قدمي، دروس السباحة أفادتني، ولكن قوة الجذب تزداد، سمعت صرخة مرعبة.. القرآن هو الملجأ الوحيد، أخذت أقرأ القرآن، وهناك أصوات كثيرة تعلو، وأصوات أخرى تقترب، صوت مرعب يخترق رأسي يقول: لن أتركك، أريدك زوجًا لي، لن أتركك، ستأتي معي إلى عالمي.. قوتي تخور.. المياه باردة... الأصوات تقترب... ودوي صوت القرآن في المكان، وهناك أشخاص في الأعلى يقذفون عليَّ ماءً وشيئًا آخر... الصورة ضبابية.. تُتلى بعض الآيات، بدأت أستعيد توازني.. أخذت نفسي، ووقفت على قدمي في جانب البئر، مُسندًا ظهري إلى الحائط، نظرت فوقي ها أنا أراهم.. محمود وبسيوني وماهر ينادونني، وأنا لا أسمعهم، في البداية أراهم فقط، كنتُ مُشوشًا، وكأن شيئًا ما طمس على سمعي، قاومت... الحياة والموت في هذه

الليلة، إنها ليلتي الآخيرة، سأفعل كل ما أستطيع فعله لإنقاذ نفسي.. المقاومة.. القتال.. مددت يدي لأمسك يد أي شخص هنا، تركني الشيء الذي يجذبني في المياه مع صرخة مدوية، ومياه البئر تدور، وكان هناك وحش يسكن بها ويغوص بداخلها، بدأت أتنفس بحرية، نزل بسيوني وماهر البئر.

قال ماهر: أحمد! إنت كويس؟!

قلت: أنا بخير، الحمد لله.. أنا فهمت الرسائل يا ماهر فهمت الحكاية كلها.. علينا أن ننهي الموضوع الليلة، لن أذهب إلى بيتي حتى أنهي هذه القصة للأبد.

قال باندهاشٍ: اطلع الأول وبعدين نشوف هنعمل إيه. استجمعت قواي وقمت، أنا لا أخاف ممّا هو أمامي، ولكن ماذا فعلت بي هذه الملعونة؟! لن أتركها، اليوم سأقضي عليها، جلست قليلًا، كان شباب البلد مجتمعين حول البئر ومعهم شعلات نارية وإضاءات وكشافات، أضاؤوا المكان بأسره، بعد ما خرجت رقدت على ظهري؛ ألتقط أنفاسي والأفكار تدور بعقلي بسرعةٍ جدًّا، قمت فأمسكت الفأس وشرعت أضرب الأرض مرةً تلو الأخرى، وأخذ شابٌّ آخر مني الفأس وأكمل هو، ودخل آخر... وهكذا، وآخرون يتساءلون عن ماذا نبحث؟ والكل ينتظر، ولنكمل ما بدأناه.. ضربة تلو الأخرى حتى وصلوا إلى عمق لا أعلم جيدًا العمق

الذي وصلنا إليه، وضربة أخرى خرجت معها بعض العظام، خاف من كان يحفر ورمى الفأس..

قائلًا: يا ساتر يارب، دا عظم بني آدم!!!

قلت: هذا هو الدليل. جاء العساكر وعمي والغفر الخاص به والمأمور أيضًا، وجلب محمود الماء والخل والملح، بدأ يقرأ ويرش في البئر ونحن نسمع أصواتًا مُرعبةً، كلنا سمعناها، صرخات من قلب الجحيم لابد أنها تتعذب..

قال: لابد أن نردم هذا البئر. بعد أن فرغ مما يفعله، والكل يشاهد في صمتٍ، كنت أريد أن أخرج العظام لكن أوقفنا المأمور..

قال: لا تفعل شيئًا، اتركها هكذا؛ لنعرف عظام مَنْ هي، أنا اعلم جيدًا عظام من هي؟!

قال عمي: خلّيها يا أحمد علشان الناس اللي هيحققوا، لو طلعناه هيتكسر.

قال المأمور: إن شاء الله هبلغ المحافظة دلوقتي، والصبح هيبعتولنا خبراء؛ ليخرجوا العظام دون أن تتحطم، وبعدها سنردم البئر.

قال عمي: الآن أيها السادة! اذهبوا إلى داركم؛ لترتاحوا بعد هذه الليلة الشاقة، وسنتولي نحن الباقي.

قلت: يا عمي.. مصطفى مش لاقيينه!!

قالوا: مصطفى، نقلناه لبيته، وقيّدوه في السرير بإحكامٍ، وهناك غفر يحرسونه.

قال عمي: لا أصدق ما يحدث. ثم ربت على كتفي.

قال: اذهب لترتاح يابن اخويا.

قلت: لن أذهب قبل أن أتأكد من أن هذا الكابوس انتهى، لا أريد أن يشعروا بالرعب في بيوتهم، في الشوارع، من هذه الملعونة، ويكفي الأرواح التي فقدناها.

صمّموا أن أذهب إلى البيت، يا لكم من معاتيه؟! بعد كل ما قلته! كانت حالتي يُرثى لها، وضع عمي عباءته على كتفي؛ ليقلل من شعوري بالبرد بسبب ملابسي المبتلة.

قال: اذهب بدّل ملابسك، وإن كنت تريد أن تأتي مرةً أخرى لن يمنعك أحدٌ.. وهكذا.

قال بسيوني وماهر والمأمور أيضًا: انصرف الناس واحدًا تلو الآخر، وتركوا الشعلة والكشافات التي يحملونها للخفراء والعساكر، ذهبت إلى البيت ومعي بسيوني وماهر يباشر عمله ومحمود أيضًا، نظرت إليهم نظرةً سريعةً، وبعض الشباب واقفون للمساعدة، عندما دخلت البيت وجدت أمي صرخت ولطمت صدرها قائلة: يا لهوي، يابني! إنت عايز تموتني، قولتلك متخرجش. وأختي راضية واضعة يدها على فمها، وليلى عندما رأتني بكت وعانقتني بشدة، قبّلت يدي أمي، وطمأنتها؛ أنني

بخير والحمد لله، لم يصبني مكروه، وجدت رقية دخلت تركض من الباب دون استئذان حتى فزعنا، تبكي.. ها هي حبيبتي الغالية بملامحها الرقيقة البريئة، عانقتني وهي تبكي، قلت: لها لماذا خرجتي وحدك الآن؟! ودخل بعدها عمي جمال ووالدتها، كنت قد بعدت عنها طبعًا، لو رآها أبوها في حضني كانت ستسوء الأمور في بلدنا، بعد ذلك طمأنتهم جميعًا بأن اللعنة انتهت للأبد، وعليَّ أن أبدل ملابسي وأعود إلى هناك؛ لأقف مع الرجال.

قال بسيوني: مش لازم تروح يا أحمد، إنت عملت اللي عليك يا صاحبي.

قلت: بسيوني أنا تمام أهو، ولا أشعر بالتعب لأرتاح!

أخذت "شاور" كنت قد عدت إلى طبيعتي، أخذت نفسًا عميقًا، لا يزال في العمر بقية، بدلت ملابسي.. كان الفجر على آذان.

قال بسيوني: هيّا لنصلي أولًا. ذهبنا إلى المسجد، صلينا مع الناس وبعد انتهائنا قام الجميع وصافحوني؛ ليطمأنوا عليَّ، ومنهم من يربت على كتفي.

قال عمي علي: ألم تخفْ وأنت تفعل ذلك؟!

قلت مازحًا: لا يا عمي علي، خوف إيه يا راجل يا طيب، دنا كنت مرعوب؟!! ضحك الجميع.

قال عمي علي: فكرتني بأبوك ياحمد، كان لا يخاف شيئًا هو الآخر، وعمك أحمد، الله يرحمه، كان صاحبي، ربنا نجاك يابني، ربنا يحفظك. وربت على كتفي وذهب.

يااااه ما كمية الرضا التي أشعر به الآن في صدري؟!! وارتسمت ابتسامةٌ على وجهي، تنبعث من شعوري بالرضا، سجدت لله سجدة شكر طويلة؛ فكلام الله هو الحافظ من كل الشرور، فنكزني بسيوني بكوعه، وأشار على محمود كأنه يريدني.

قال: ماذا حدث؟ ولماذا فعلت ذلك وحدك؟! أتريد الانتحار؟! أأنت متهورٌ هكذا طوال الوقت؟!

قلت: لا، يا عمي الشيخ، لكن لم أشعر بنفسي، كنت أريد إنقاذ مصطفى بأي شكلٍ.

قال: الحمد لله؛ أنكم جميعًا بخير، ولم يصبكم مكروهٌ، ولم يتأذَ أحدٌ هذه الليلة.

قلت: الحمد لله.

قال: إنت عارف.. حكايتك هذه لن تنسى أبدًا.

قلت: ربك كريم، لولاكم كان زماني في خبر كان!

قال: دلوقتي بس أقدر أقولك الحكاية.

قلت: اتفضل.

قال: العظم اللي لقتوه عظم قتيل، وأظن أنها أنثى، وقرينها أنثى من عالم الجن، والقرين، الله وحده، أعلم بقرين كل شخص، من أن يكون أنثى، وممكن أن يكون ذكر هذه الفتاة قرينها أنثى من العالم الخفي؛ كانت تريد الانتقام، ممكن فعل ذلك بقرينته، وبدأ بالخروج عندما هجر المكان

إللي هو الساقية، عشان الناس هجرتها، وخفت فيها الأرجل حتى الحكومة لم تجبر الفلاحين أن يستعملوا البئر.. حتى سكنته الجنّية، واندمجت مع الروح الهائمة في عالمنا حتى الآن؛ ولأن شكلها الحقيقي مرعبٌ، وصوتُها أيضًا ولوحدها؛ لم تكن تستطيع أن تفعل أيَّ شيءٍ، فقدرتهم محدودة، لكن عندما اندمجت روح القتيلة مع الشيء الآخر أصبحت تتشكل بشكل الفتاة، وتنادي على الرجال فقط، ممكن أن يخرجوا بالليل في نفس الوقت الذي حدثت فيه الجريمة انتقامًا ممن قتلوها في اعتقادها، إن من سيتبع صوتها وينزل إلى الحقول فهو يستحق القتل، ومن يذهب إلى مكان الجريمة في نفس الوقت فهو تعيس الحظ، لكنها لم تنادِ أحدًا أبدًا من بيته، وفي الليلة الموعودة إنت عطلتها؛ بما فعلته! حين أنقذت مصطفى؛ فغضبت ويبدو أن روح الفتاة أيضًا اختارتك لتحكي لك ما حدث لها؛ لأنك الناجي الوحيد من النداهة؛ وذلك عن طريق أحلامك، هذا ما وصلت إليه، لكن هناك أشياءٌ لا أعرفها وأنت تعرفها، وأريدك أن تحكي لي البقية؛ لتكتمل القصة.

قلت: هي مش كدا ذهبت بغير رجعه!!

قال: الروح حتمًا ستذهب إلى مثواها حين تأخذ حقّها، لا تنسَ أنها انتظرت سنين طويلة، كما قال ماهر، سترحل الآن على ما أعتقد وكانت الرسائل؛ لنعلم نحن ما حدث، لنفك أسرها من الشيء الآخر.. أما الشيء الآخر فعلمه عند الله، ممكن أن نكون طردناه من البلد فقط،

وبهذا يكون ذهب إلى أرضٍ أخرى، أو أي بلدٍ أخرى، ستعيش في الأماكن المهجورة فقط، وممكن أن تعود مرة أخرى، لا أعلم؛ فهذه الكائنات لا أحد يعرف ما تستطيع فعله!

قلت: خلّيها على الله، المهم إيه أول حاجة نعملها دلوقتي؟

قال: أهم شيء البئر؛ فهو مسكنها، لابد أن يردم والمكان وما حوله يتطهر بقراءة القرآن الكريم؛ فكلام الله هو الحافظ من كل المخلوقات.

قلت: ونعم بالله، هستأذن أنا.

قال: اتفضل. صافحني، وهو يقول: أنا سعيد جدًّا؛ إني اتعرفت عليك.

قلت: الشرف لي أنا يا شيخ محمود.

- خرجنا أنا وبسيوني، كان الشروق الجميل قد طلع على البلدة، يزيح ستار الظلام، ونسمة البرودة تتحف أنفاسنا، لم أشعر براحة مثل الآن، وظهرت معالم بلدنا، وتغنّت الطيور على الشجر، ذهبنا إلى الساقية وجدنا رجال الشرطة قد أحاطوا المكان بشريطٍ لاصقٍ أصفر وعليه كلمة "ممنوع التواجد هنا"، وهناك بعض الرجال يردمون البئر، وبعض الرجال الآخرين يحفرون حول الهيكل العظمي، أو ما تبقى منه بأدوات مثل أدوات النحت، والسبب أنه ما زال به عظام، ولأن التربة جافةً حافظت عليه كما هو طوال هذه المدة ولم يتحلل، وظلوا ينحتون التراب من حوله بهذه الأدوات الاحترافية وكأنهم ينحتون تمثالًا كتمثال المفكر للمبدع النحات الفرنسي (أوغست رودان)، وكان ماهر مع بعض الرجال جالسين وحولهم طعام أعده الفلاحون الكرماء، وكانت بلدنا

كلها كرماء، لم أعهد فيهم صفة البخل، هذا الطعام أعده الفلاحون الذين كانوا بجوار مكان الحفر، حقًّا إنهم كرماء في غاية الكرم.

قال: اجلس، افطر مع الرجال.

قلت: لا أريد الآن؛ لماذا لا تأكل أنت؟

قال: لا أريد أيضًا، ليس لدي شهية لأي شيء. وسألته عن هؤلاء.

قال: الموضوع كبير، والصحافة في طريقها إلى هنا، والخبر سينتشر في كل مكان، الحمد لله إنك بخير.

قلت: لولاكم كان زماني ميت علشان كده بشكركم جدًّا وربت على كتف ماهر وبسيوني.

قلت لماهر: إيه اللي هيتم دلوقتي؟!

قال: ولا حاجة، العظام اللي طلعوها هيحللوها علشان يعرفوا أسباب الوفاة والتاريخ وصاحب العظام.

قلت: محنا عارفين كل دا والمعلومات كلها معاك.

قال: لا يا صديقي العزيز، لغاية هنا وملناش دعوة، هنقولهم عرفت منين؟! من حلم!! هيقولوا: دا اتجنن. وهتخسر كل شيء، وأخرتك هتبقى مستشفى المجانين.

قلت: وبعدين؟!

قال: إحنا هنتعامل إننا لا نعرف أي شيء، حتى يأتي التقرير النهائي.. هنبدأ التحقيق، وأنا اللي كلفت بالقضية رسميًّا، وطبعًا أنا معايا كل

المعلومات اللازمة لأنهي التحقيق بأسرع وقتٍ ممكنٍ ونصل لمن فعلوا هذه الجريمة، ونحاسبهم رسميًّا بالقانون.

أومأت برأسي موافقًا، في حين لم يكن في يدي شيءٌ آخر، رغم ذلك أنا أثق بماهر.

قال ماهر: اِذهب الآن واسترح، فقد كانت ليلةً شاقةً عليك.

قلت: على الجميع، ليس عليَّا وحدي!

قال بسيوني: أرى ذلك أيضًا يا أحمد، أنا كمان تعبت جدًّا، نظرت إليه وابتسمت.

قال: لماذا تضحك؟! نظر لماهر أيضًا.. وجده يضحك.. قال: لماذا تضحكون؟! ألم أتعب؟! تركته وذهبت وأنا أقهقه، وصوته ورائي.. دا ظلم دا.. صدق إننا غلطانيين، إننا طلعناك من البئر و.....

ذهبت إلى البيت.. ارتميت على سريري، نمت نومًا عميقًا حتى أنني لم أشعر بأي شيءٍ لكن ليس لوقتٍ طويلٍ، جاء بعض الصحفيين ليغطوا الخبر؛ جاؤوا إلى البيت، استيقظت على الدوشة، كانت الساعة الواحدة ظهرًا، يبدو أنهم جاؤوا سريعًا، وأعتقد أن مكان الحادث الآن يُصور من قبل بعض الصحافيين أيضًا، انقلبت الدنيا رأسًا على عقب، والإعلام مُؤثر جدًّا لكني لا أحبه؛ لأنه ليس منصفًا، ولا محايدًا، أمّا الصحفيون الموجودون في البيت عندي يريدون أن يُصوّروني! يتكلمون جميعًا في وقتٍ واحدٍ مُسبّبين إزعاجًا للسَّمع غير عادي؛ فاعتذرت لهم عن إجراء

لقاءٍ في الوقت الحالي؛ لأن القصة لم تنتهِ بعد، لكن عندما تكتمل القصة ويكشف التحقيق كلَّ شيءٍ عندها سأكون جاهزًا، أنهى الرجال عملهم، ذهبت وقت العصر إلى الساقية، لم أجد أحدًا هناك، البئر مَردومٌ، والأرض محفورةٌ مكان الهيكل، هل انتهى دوري في هذه القصة.. لا أدري، لكني أريد أن أفهم فقط.. لماذا تمّ الأمر على هذا النحو؟؟! ذهبت إلى المركز، لم يكن ماهر موجودًا، عدت أدراجي، وبما أن ليس هناك شيءٌ أفعله ذهبت إلى رقية لأطمأن عليها، جلست معهم، وأثنى عمي جمال على شجاعتي حتى حماتي، لم تكن تتكلم معي كثيرًا، لا أعلم السبب، أخذت تربت على كتفي، وتدعو لي.

قلت لعمي جمال: إن شاء الله، أسبوع كدا ونحدد ميعاد الفرح. وافق وفرح كثيرًا.

قال لي ناصحًا: اِبتعد عن المشاكل، وحاول أن تعيش في هدوءٍ؛ لأن الزواج مسئوليّةٌ، ولكي أعيش سعيدًا لابد أن أبعد عن المشاكل. أومأت برأسي.. نعم.

قال: إمتى بقى إن شاء الله الفرح؟

- سأذهب أولًا لأستلم وظيفتي، وبعد ذلك نتفق على ميعاد الفرح، إن شاء الله.

فرحوا جميعًا، وحضّروا الطعام، أكلنا مع بعضنا، وكانت نظراتنا أنا ورقية لبعضنا توحي بما في قلوبنا، كانت أسعد لحظات حياتي، ثم ذهبت

للبيت، جلستُ مع أمي وأختي راضية.. وقبيل أذان العشاء طرق الباب، قمت فتحت الباب وجدت بسيوني..

قال: السلام عليكم.

قلت: عليكم السلام، فينك يا عم إنت؟!

قال: موجود أهو، إبسط يا عم، بقيت أشهر من النار على العلم!!

قلت: إزاي يعني؟! تعالى أُدخل الأول.

دخلنا غرفتي بعد ما سلم على أمي وأختي.

قالت راضية: هاعملكم الشاي.

قلت: ماشي يا راضية. دخلنا الغرفة.

قلت: إيه الحكاية؟ وإيه اللي حصل، أنا ذهبت عند الساقية لم أجد أي شيءٍ؟!

قال: أيوه، ما هم ردموا البئر، وأخدوا الهيكل علشان يحللوه، إنت عارف الطب الشرعي، متقدم علميًّا عندنا إزاي، لكن سيبك من كل دا. وأخرج ورقة جرنال من جيبه من أشهر الجرائد وقتها.

قال: أنا لسه جاي من شوية من القاهرة، ذهبت مع الصحفيين اللي كانوا موجودين بيصوروا الهيكل، اخدت إنت كل الشهرة لوحدك، البلد كلها والبلاد اللي حوالينا ملهومش سيرة غيرك، وبكرة هتلاقي الناس كلها عندك هنا، واحنا ولا كإننا عملنا حاجة.

قالها بضيقٍ وحنقٍ، كنت أسمعه فقط، أحسست أنه يشعر بالغيرة؛ لكن لماذا؟! هذا صديقي الغالي!!

قلت: متخافش يا صاحبي هقولهم على كل حاجة إنت عملتها، ولولاك كان زماني ميّت، لكنه ما زال غير راضٍ.

قال: في الآخر إنت اللي اسمك هينزل في الجرائد، وأنا ولا حد هيعرفني.

فكرت قليلًا حتى وجدت طريقةً تُرضيه، كان يشرب الشاي في تؤدةٍ ويُريد أن يطلب شيئًا لكنه محرجٌ أن يطلب... أُذّن لصلاة العشاء.

قلت: هيّا لنذهب للمسجد، أدّينا صلاتنا، وكان كلٌّ من بالمسجد يصافحونني ويتركون بسيوني صديقي، بحثت عنه لم أجده، أحزنني هذا الأمر، هل يغضب مني صديق عمري لأمرٍ كهذا بهذه السهولة؟! هل الصديق ممكن أن يكره صديقه لأمرٍ بسيطٍ كهذا.. حتى إن غضب هو لن أتركه أنا، ولن أغضب منه، خرجت من المسجد وذهبت إلى المركز، كان ماهر موجودًا.

قلت له: أريد أن أتصل بالقاهرة. لم يمانع، طلبت الرقم لم يكن هناك مباشر، كلمت البدّالة ليحولونني على الرقم في المرة الأولى، لم يرد أحد حاولت مرةً أخرى حتى ردَّ أحدهم، أخبرته أنني أريد محادثة رئيس التحرير حولني على السكرتير، ثم قال: حَاوِلْ الاتِّصال صباحًا؛ لأنه لا يوجد أحدٌ هنا.

- بعدما عرفته عن نفسي، كان يعرفني، وبعد أن أثنى عليَّ وأخذ يردد كلمة "بطل" كثيرًا أثناء حديثه.

قال: الصحفيين بكرة هيكونوا في البلد علشان يعملوا مع حضرتك لقاء صحفي.

قلت: إن شاء الله.

قفلت الخط، جلست مع ماهر حيث أبلغني أن كل شيءٍ على ما يرام، وأنه أرسل مُخبرين إلى العنوان القديم لعائلة سارة ووالدها محمود حسين، وبعد السؤال تبين أن والدها ووالدتها بعد اختفائها بعشرة أعوامٍ تركوا منزلهم ورحلوا، لا أحد يعلم إلى أين، واحنا بنتحري عنهم، وسأصل إليهم بكرة، إن شاء الله هيكون عندي عنوانهم الجديد.

قلت: شكرًا يا ماهر، أنا مش عارف من غيرك كنت هعمل إيه؟!

قال: أبدًا يا صاحبي، أنا اللي بشكرك، وسامحني إني يعني لم أصدقك في بداية الأمر.

قلت: الأمر كله خارج عن المألوف، المهم اللي جاي. وخرجت.. ذهبت إلى بيتي، كنت أمشي في الليل وسط الأراضي والجو لا يخلو من البرودة، ويخرج البخار مع أنفاسي، كان جوًّا جميلًا، لم أشهده ولم أشهد جمالَ هدوءِ بلدي بدون النداهة من قبل، والقتل... إلى آخره. عدت إلى البيت وقرأت قليلًا ثم نمت، وفي الصباح قمت كعادتي، جهزت أمي الفطور، وجلسنا لنتاول الطعام، وفجأةً وبدون مقدمات.. وجدنا زحامًا أمام الباب، والباب كان مفتوحًا، يكون هكذا في الصباح، كانت الشمس ساطعةً تُدفئ الأجساد من برودة الهواء، يا له من يوم جميل!! كانت راضية وليلى يراقبان، وهما مسرورتان، أخذوا يصورونني.

قلت لهم: إن البطل الحقيقي لهذه القصة هو بسيوني صديقي. نظر الجميع بعضهم لبعض..

قالت صحفية: لكن إحنا أمس سألنا بعض الفلاحين، وقالوا: إن إنت البطل الحقيقي!

قلت: لكن لولا بسيوني وماهر لكنت من الأموات الآن.

قالت: ماهر دا حضرت الضابط صح؟!

قلت: بالضبط كدا، همّا الأبطال، وأنا مجرد فرد في القصة.

قال أحدهم: وأين نجد الأستاذ بسيوني الآن؟!

قلت: أكيد في بيته.

أشرت لهم إلى بيته، ذهبوا يتسارعون إلى هناك إلا صحفية واحدة كانت تنظر لي بابتسامة، يبدو عليها الذكاء..

قلت لها: لماذا تقفي؟! اِذهبي لبسيوني.

قالت بذكاءٍ وعلى وجهها البشوش ابتسامةٌ: أخذت اللي أنا عايزاه خلاص، لكن ممكن أسالك شوية أسئلة، واعتبرني ضيفتك.

قلت: اتفضلي.

أخذت تسأل عن التفاصيل، وكنت أجاوبها بكلِّ صدقٍ، وبعد الانتهاء شكرتني.

قالت: إنت مثال للصديق الجيد، أنا أقدر ذلك، وسأذكر بسيوني صديقك وماهر بيه أيضًا بأنهم أبطال، وابتسمنا، قلت لها: أنا أيضًا مُعجبٌ

بذكائك جدًّا، وأحب الإنسان اللي بيفكر بطريقة مختلفة. صافحتني وذهبت.. دخلت الدار.

قالت راضية: ليه قولتلهم كدا؟!

قلت بابتسامةٍ: لا أريد أن أخسر بسيوني من أجل هذا.

قالت: لكن الشهرة والمجد!!

- لا أحبها على أية حال.

قالت ليلى: أنا عايزة أتصور..

ضحكت لها وأمسكتها لأمازحها: أُدخلي يا بت ذاكري.

قبلتها من جبينها، ودعت لي؛ فهي أختي الحنونة المؤنسة الغالية، جلستُ على المصطبة أمام البيت، وجاء التلفزيون ليصور، كان أي شخص يأتي إليَّ كنت أرسله إلى بسيوني، نزل الخبر في الجرائد، في هذا اليوم جاء بسيوني إلى داري وعانقني، كان فرحًا وظلَّ يشكرني.

قال: لماذا فعلت ذلك؟!

قلت: ما هو؟

قال: لماذا قلت لهم ذلك؟!

قلت: حقك، إنت مش كنت معايا يدًا بيدٍ!

فرح جدًّا، لاحظت ذلك، قال: لكني أبلغتهم بالحقيقة، أخبرتهم أن ينشروها دون الرجوع لك. وأعطاني الجريدة، وأظن أنك لن تقاضيني!! قهقهنا.

قلت: لا، لن أقاضيك يا بسيوني، إنت صديقي، أصبحنا في يومٍ واحدٍ أشهر من النار على العلم، كنت لا أحب الشهرة، لكني لم أجربها أيضًا، جاءتني عروضٌ من التلفزيون والإذاعة، كنت أرفض ولكن بسيوني لم يكن يرفض، وفي اليوم التالي جاء ماهر وأبلغني أنه عثر عليهم، ولكن والدها ووالدتها توفوا، لا يوجد غير أختها الصغيرة، الآن ليست صغيرةً بالطبع، هي أسماء محمود حسين، كان عندها عشر سنوات حين اختفت أختها، يعني: هي الآن عندها خمسين عامًا، لديها ولدان وبنتٌ، زوجها تُوفي، وطلبناها استدعاءً من النيابة.

قلت: تمام، هو أنا ممكن أجلس معاها بعض الوقت؟!

قال: إن شاء الله، والخبر الثاني وجدت شيئًا في القضية زمان؛ تم القبض على ثلاثة شباب، التحريات وقتها أثبتت أنهم آخر ناس شافوها، كانو زمايلها في الجامعة، لكن التحقيقات موصلتش لأي حاجة، وخرجوا براءة لعدم توافر الأدلة، الغريب بقى إن بعد كدا بأسبوع واحد اثنين منهم ماتوا في ظروف غامضة، وجدوهم غرقانين في البانيو، والكلام دا بعد الحادثة، أو بمعنًى أدق: بعدما خرجوا براءة، أما الثالث فاختفى أكثر من شهر وترك بيته، ولا أحد يعلم أين كان، لكنه ظهر مجددًا وترك البلد، وسافر إلى بريطانيا ليكمل دراسته، وعاش هناك، المفاجأة أنه عاد من أسبوعين فقط وهو الآن هنا في مصر، لديه ولد وبنت، وزوجته من أكبر العائلات هنا؛ حيث إنه الآن يمتلك النفوذ والمال والسلطة،

وهو من أغنى أغنياء البلد، اسمه فهيم أسعد، بيتهم القديم كان في الشين جنبنا هنا، وكان عنده سيارة، والده أعطاه إياها؛ ليذهب بها إلى الجامعة؛ ليرحمه من المواصلات، وكان يمر من هنا كل يوم.

قلت: قصدك يعني إن هو اللي....

قال: إنت بقى اللي تقول، مش بتقول شفتهم في الحلم، فعلى حسب الحلم اللي إنتى شفته، مفيش غيره، لكن إزاي وإمتى.. لا نعرف! وطلعله استدعاء من النيابة هو أيضًا، وهيتحقق معاه بأمر من النائب العام؛ نظرًا للوسطة اللي ممكن تلغي أي استدعاء من النيابة، وهو الآن أظن إنه تم التحقيق معه.

قلت: إنت لحقت تعرف كل دا إمتى، وهتعرف إزاي إنه اتحقق معاه؟!

قال: بالتلفون يا صديقي، زميلي في المديرية هو اللي بيحقق معاه، وقال: هبلغك، وأنا عرفته، لو أنا مش موجود يتصل على تلفون البيت ويسيبلهم خبر، وأنا هاتصل بيه.

قلت: شكرًا يا ماهر، لكن أنا مش هرتاح غير لما أشوفه.

قال: إيه رأيك تيجي معايا بكرة للوزارة، أنا كدا كدا طلبوني هناك لمقابلة اللواء صلاح سيف.

قلت: لماذا..

قال: لا أعلم.

قلت: إذًا لنذهب غدًا إن شاء الله.

في اليوم التالي مرَّ عليَّ ماهر في الصباح، وذهبنا بسيارته إلى قاهرة المعز، لقد وفر علينا عناء المواصلات، ثم ذهبنا إلى الوزارة حيث المبنى العتيق، مبنًى يشعرك بالهيبة عند دخوله، المدخل مبلط ومستوي، والأشجار والزرع على جانبي السلم، بعد أن تكلم ماهر مع عساكر الحرس على البوابة سمح بدخولنا، صعدنا إلى الطابق الثاني، قلت: إلى أين نحن ذاهبان الآن؟

قال: إلى مكتب صديقي الرائد أسامة عمرو.

قلت: مَنْ هذا؟

قال: ابن عمي وصديقي، خدوم جدًّا وجدع، وصاحب صاحبه، من الآخر محدش هيساعدنا غيره.

قلت: تمام.

طرق الباب وجاء صوت بنبرة رسمية: اتفضل. دخل ماهر وناداني، قام من مقعده لاستقبالنا قائلًا: ماهر باشا. وعانقوا بعضهم.

قال ماهر: الدكتور أحمد صديقي.

قال: أهلًا وسهلًا، وصافحني..: اتفضلوا.

قلت: أهلًا وسهلًا... جلسنا، ذهب لكرسيه وهو يقول: ياه يا جدعان، منورنا والله يا راجل.

قال ماهر: دا نورك يا باشا.

قال أسامه: إيه يابن عمي، مقولتش يعني إنك جاي!

قال ماهر: قلت أسيبهالك مفاجأة بما أني كدا كدا لم أركَ منذ مدة، ولا يوجد بيننا سوى اتصال هاتف فقط.

قال: إنت جيت علشان الموضوع إياه؟!

قال: آه، فيه جديد؟

قال أسامة: أخبار مش كويسة، كنت هبلغك النهاردة.

قلت: خير؟!

قال: الأول تشربوا إيه؟

قال ماهر: أي حاجة.... لا أقولكم نفطر مع بعض الأول.

قال ماهر: إحنا فطرنا.

قال مُتحديًّا: ها، وبعدين إنت بتصغرني ولا إيه. ضحك ماهر، فنادى أسامة بصوتٍ جهوري: يا عسكري! كما يحدث تمامًا في أفلام السينما، أعطاه خمسة جنيهات.

قال: جبلنا فطار ملوكي من المطعم اللي جنبنا دا، قوله للرائد أسامة، أربعة أشخاص.

قلت: تسلم يا أسامة باشا.

قال: هنفطر لقمة سوا علشان يبقى عيش وملح.

قلت: حقيقي والله، أنا يشرفني، واتشرفت فعلًا بمعرفتك، لكن لن أستطيع أن آكل.

قال لماهر مُعاتبًا: شوف يا عم صاحبك، إنت أول مرة تشرفني في مكتبي، ولازم تاخد واجبك.

قال ماهر: خلاص يا أحمد، إنت لا تعرف أسامة، ما دام قال: هنفطر. يبقى هنفطر عافية.

قهقها بصوتٍ خشنٍ.

قال: لا، لا، مش عافية ولا حاجة، لكن واجب، ونَهَرَ العسكري: روح يابني! واقف ليه. أعطاه التمام وذهب.

قال: الموضوع اللي إنتم جايين علشانه.. بس إنتم مش بتقرؤوا جرايد ولا إيه؟! وأعطاني الجريدة اليومية، كانت مفتوحة على خبر "تم الإفراج عن رجل الأعمال المشهور أسعد فهيم ممّا نسب إليه، وهو قضية القتل العمد للفتاة التي وجدوا جثتها، ولقبت بالنداهة في مركز قطور محافظة الغربية؛ نظرًا لاتهامه باختطافها في قضية قديمة حين اختفت الفتاة، كشفت التحقيقات أن رجل الأعمال أسعد فهيم ووائل السيد ووليد محمد آخر من التقوا بالضحية، هل لهم علاقة بقتلها، وما علاقة كل هذا بالنداهة؟! هذا ما ستكشفه التحقيقات، وقد قام مُؤخرًا محامي رجل الأعمال برفع دعوى قضائية تعويضًا على الحكومة لما حدث له من إضرار تمس سمعته..." لم أكمل القراءة، وأخذ ماهر الجرنال.

قلت مُتسائلًا: هل البحث الجنائي لم يجد شيئًا؟!

قال: هيثبت إيه يا مولانا، الهيكل العظمي اللي وجدوه لجثة بنت اختفت من 40سنة، وإنها اتعرضت للاغتصاب الحاد قبل ما يقتلوها، وأظن إنكم عارفين الكلام ده كويس، لكن لم يثبت أي شيء آخر، لا سلاح ولا شهود ولا بصمات ولا أي شيء، لو محامي تحت التمرين.. هيخرّجوا منها، مش عتاولة زي اللي معاه يابويا، انسوا الموضوع دا، نصيحة من أخوكم.. صمتنا قليلًا.

قال ماهر: أنا أستاذنكم لبضعة دقائق.

قال أسامة: إنت رايح فين؟

قال: لمكتب اللواء صلاح سيف.

قال: اللواء صلاح سيف!! يبقى يا تراضية يا مأمورية يا حلو!!

قال: سنعرف الآن. ثم قال لي: انتظرني هنا يابو حميد حتى أعود. أومأت برأسي، وخرج..

قال أسامة: منور يا أستاذ أحمد.

قلت: دا نورك يا باشا، ظل يسأل أسئلة كثيرة جدًّا أكثر من المعتاد؛ كشخصٍ أول مرة تقابله، وكنت أجيبه طبعًا حتى جاء العسكري بالطعام، وأعطاه الباقي، وشكره أسامة، خرج العسكري، تقابل هو وماهر على باب المكتب، عاد ماهر بسرعة؛ لأن اللواء ليس موجودًا الآن، نهض أسامه وفرد الطعام على الطاولة، وقرّب كرسيًّا وأصر على أن ناكل مع بعضنا، كنت منغمسًا في تفكيري.. كيف أثبت أن أسعد هذا هو

من فعل فعلته بالفتاة؟! لكن كيف.. أثناء تناول الطعام سأل أسامةُ ماهر.

قال: هل عرفت لماذا يحتاجك اللواء صلاح؟

قال: سألت دلوقتي، قالوا: الترقية، إن شاء الله.

قال: ألف مبروك، أيوه كده يا عم، يا ترى بتفكر تجي معنا هنا ولا إنت حابب البلد. ضحك ماهر وقال: إنت عارف يا أسامة! هاجي هنا أعمل إيه؟! البلد هادية وشغلها كويس.

قال: براحتك، ماهو مش كل يوم في البلد هيكون فيه النداهة وقتل، والقضايا المهمة اللي تأهلك لترقية ثانية..

قال ماهر: يا عم أنا مبسوط كده، والنبي خليك في حالك يا أسامة، نظر إليَّ ماهر وقال: إيه يا بو حميد! بتفكر في إيه؟!

قلت: بفكر إزاي نثبت إن أسعد ده كان واحد من اللي قتلوا سارة؟!

قال: متفكرش كتير، الموضوع منهي.

قال أسامة: الرجل واصل قوي، لو خايفين على مستقبلكم سيبوا القضية تمشي في مجراها الطبيعي، ولو التحقيقات أثبتت إنه مدان هيتحاسب، غير كدا ما فيش في إيديكم أي حاجة تعملوها، وبعدين إنت واثق أوي كدا إنه هو اللي قتل، جايب الثقة دي منين؟! ومتأكد أوي كدا ليه؟!

قلت: يعني، ممكن القضية تتحفظ مرة أخرى.

قال أسامة: للأسف ممكن.. إلا لو اعترف اعتراف رسمي، منه.

قلت: إذا أراد الله شيئًا كان، عمومًا أنا عملت اللي أقدر عليه لغاية دلوقتي.

قال ماهر: هتعمل إيه دلوقتي؟!

قلت: لما تخلص إنت اللي وراك هانمشى وأشوف مصلحتى بقى، أنا عندي أشياء كثيرة مُؤجلة، لابد أن أنهيها، لا أريد ترك موضوع العمل معلقًا هكذا.

قال: ممكن أغيب، على بالليل كدا لو حبيت تنتظرني فهو كذلك.

قلت: إذًا سأذهب الآن إلى الجامعة لكي أستلم وظيفتي وأنا هنا بالمرة، بما إن كل تعبنا ضاع، وبعد ذلك سأرى ما يمكن فعله في موضوع الزواج، ليس لدي أي شيء آخر.

قال: ربنا يوفقك إن شاء الله.

باركت له على الترقية، كنت سعيدًا جدًّا من أجله، استأذنت وصافحت ماهر، خرجت من المديرية، ركبت الترام، وذهبت إلى عمادة الكلية، قالوا: إنك تأخرت على استلام الوظيفة. عليَّ الآن أن أنتظر حتى تصدر العمادة جوابَ التعيين مرةً أخرى، لم يكن بيدي شيءٌ غير الانتظار، خرجت أعود أدراجي إلى حيث أنتمي، وأشعر بالفشل.. عندما خرجت من الجامعة؛ إذ بسيارة سوداء تدعمني، كنت أرى كل شيء لكني أشعر بكسرٍ في ذراعي وقدمي، نزل منها شابّان: أحدهما حليق الرأس أصلع، والآخر

ذو لحية، يرتدون بدلًا سوداء رسمية، شعرت بشيءٍ يدخل في كتفي، وبدأت الصورة تتلاشى، غبت عن الوعي، رأيت لقطاتٍ كأنها تريلر فيلم.. الفتاة الجنية، ثم الرجل وهو يغرز المطواة في بطنها، ثم سارة تقترب مني تمشي في تؤدةٍ، تقترب مني، همستْ في أذني: اِستيقظ الآن.. هنا فتحت عيني وجدت نفسي مُقيدًا على كرسي في مكانٍ مظلمٍ، لا أعرف أين كنتُ؟! الرؤية عسيرة، الضباب، الصورة ضبابية، لم يكن هناك أحد في الغرفة، لم أميّز الوقت، ولا أعلم كم من الوقت وأنا هنا؟! الألم يزداد في ذراعي وقدمي، بعد فترة وراحة قليلة من الصداع والألم بدأت أتذكر ما حدث؟! السيارة السوداء، الحقنة، أحد هؤلاء الشباب حقنني بشيءٍ، لم أُطل الحديث مع نفسي، كان لدي ثباتٌ انفعالي من التدريبات وقوه التحمل، هنا تحرك مقبض الباب ودخل شخصان: أحدهما أصلع، والآخر... إنهما هما.. صرخت بهما: مَنْ أنتم؟ وماذا تريدون مني؟! دخل شخصٌ يرتدي بدلةً رماديةً أنيقة، فوقها جاكيت إيطالي الصنع، شعره أنيق، الشيب الأبيض غزا رأسه ولكنه لا يزال أنيقا رغم كبر سنه، يمسك في يده قبعةً بريطانيةً، يشرب سيجارًا، أعطى القبعة للشخص الأصلع، كنت أنظر فقط؛ لأنني فهمت ما يجري، إنه.. "أسعد" الرجل الذي قلبت على رأسه الدنيا، ولكنه يستحق، سيقتلني أم ماذا؟! وبما أنني أتكلم وأنت تقرأ هذه السطور.. معنى ذلك أنه لم يقتلني، ولكنه كاد أن يفعل ذلك.

جلب الكرسي ووضعه أمامي وجلس.

قال: أحمد رضوان، صح؟!

قلت: أجل، ولا أعتقد أنك خاطفني وأنت لا تعلم من أنا!!

قال وهو يبتسم ابتسامة سخيفة على وجهه: أعرفك جيّدًا، وأظن أنك أيضًا تعرفني.

قلت: مش واخد بالي.

مشى ناحيتي، وقف عند يدي، وضربها بيده، توجعت قليلًا ولكني تحملت، خرجت آه مكتومة، ثم قلت: إنت عايز مني إيه؟

قال: إنت اللي عاوز.

قلت: أنا هعوز منك إيه؟!

ضرب يدي مرة أخرى بقوة أكبر، ومن آثارها خرجت تميمة يعلقها في رقبته، لقد رأيت مثلها من قبل، لكن لا أذكر أين رأيتها، تعودت من تمريني؛ من أرى وأدقق في كل شيءٍ حولي، وأقسم أنني رأيت هذه التميمة من قبل!!

قلت: صدقني، أنا لا أريد منك شيئًا غير العدل.

قال: العدل اللي هو إيه بقى؟!

قلت: هل تذكر سارة؟

قال: من هي؟

هو لا يعرف أنني أعرف كل شيءٍ، سأستدرجه قليلًا، أريده أن يعترف.

قلت: إنت آخر واحد شفتها، إنت والاتنين الآخرين، هم أخذوا جزاءهم، فاضل إنت.

أخرج المسدس من بدلته، وضعه على رأسي، قال: من أنت؟! ومن أين تعرف كل ذلك؟!

قلت: أنا أعلم كل شيء، أصل أنا حاوي، والشرطة أيضًا تعلم.

قال بغرورٍ: ومن سيعرف شيئًا؟!! أقتلك الآن وسينتهي كل شيء، ولو كان عند الحكومة أي دليل لم يكونوا ليتركوني، والآن سأقتلك. وكاد أن يفعل!

قلت: اِنتظر. كان متوترًا، ونظرات عينيه كانت تقول: إنه سيقتلني بالفعل، قلت له: هل ستقتلني دون أن تفهم؟!

قال: ماذا؟!

قلت: لأنك غبي!

قال: ماذا قلت أيها الحقير. تغاضيت عن سبّه.

قلت: أنا أحب الأغبياء، وراهنت على خوفك.

قال: تقصد الفضول.. بالفعل أنا أريد أن أعرف كيف عرفت ذلك، وبعدها سأقتلك.. كما قلت: لك الفضول خطيئتي.

قلت: أنا عارف كل حاجة، وشفت اللي حصل، واللي عملته إنت والاتنين اللي كانوا معاك، شوفتكم وانتم بتغتصبوها، وشفتكم وانتم بتقتلوها.

قال: إنت مجنون، كيف عرفت كل ذلك، وانت مولود بعد الحادث بسنين طويلة.

ارتسمت نظرةٌ شريرةٌ على وجهي لترعبه، قلت: سارة هي من أخبرتني، وجعلتني أرى كل شيء!!

أخذ يضحك في هستيريا.

قال: يعني إنت عايز تقنعني بعد المدة دي كلها، والسنين دي، إنك عراف.

قلت: لا يعلم الغيب إلا الله، لكن هذا ماضي، والماضي ممكن الاطّلاع عليه في أي وقت؛ لأنه لن يتغير وحصل فعلًا.

قال: اسمع يلا، وفّر الهبل بتاعك ده، مش فاضيلك وهقتلك، ومش بس كده، هقتل أهلك كلهم!!

أثناء كلامي معه وانشغاله بي.. كنت قد فككت قيودي كما كان يفعل هوديني، واقترب مني وفي يده مسدسه، وبحركةٍ سريعةٍ أخذت منه المسدس، ووضعته في رأسه، وأخرج الرجلان أسلحتهم، وأشهروها في وجهي، أمرتهم بأن ينزلوا أسلحتهم، الغرفة التي نحن فيها هي عبارة عن مخزنٍ، بها أحبال الغسيل وأشياء أخرى، مثل قطع حديد، مفكات وبراغي على الأرفف.

قلت لأسعد: أؤمرهم أن ينزلوا أسلحتهم بدل ما افرتكلك دماغك!

قال لهم: نزلوا سلاحكم. وأشار بيده؛ فأطاعوا لأمره، ووضعوها على الأرض.

قلت لهم أن يقذفوها ناحيتي؛ فقذفوها تحت قدمي، فدفعت بأسعد ناحيتهم، وأمسكت سلاحًا آخر في اليد الأخرى، وقذفت الثالث في وسط الأكوام من الكراتين بقدمي، وأمرت أسعد أن يأتى بالحبال، ووضعت الكرسيين خلف خلاف، وقلت للحارسين أن يجلسا، وقلت لأسعد أن يقيدهم، وإن لم يكن القيد بإحكامٍ أقسم أني سأقتله، أعلم جيدًا أن هذا الرجل يخاف على حياته، ويريد أن يعيش... أخذ يقيدهم، أمرته أن يبتعد، وضربت الأصلع على رأسه فهاج وماج؛ ليفك وثاقه، تأكدت أن القيد محكمٌ؛ لأن الأصلع دائمًا يكره أن يُضرب على رأسه.. أقتله لكن لا تضربه على رأسه.

قلت: لمؤاخذة يا بو الشباب، كنت بتأكد إن القيد محكم.

قال: متفكني وأنا أوريك هاعمل فيك إيه؟

ضربته مرّةً أخرى مازحًا، وقلت لأسعد: احكيلي بقى. وجلست على كرسي.

قال بسخرية: احكيلك إيه؟!

قلت: الحكاية من أولها، إنت كده كده ميت، احكيلي ممكن أسيبك.

قال: إوعدني بألا تبلغ الشرطة.

قلت له: لا تخف من الشرطة، الآن عليك أن تخاف مني أنا فقط.

قال: خذ كل ما أملك، عندي فلوس كثيرة، خذها، هخليك من أهم الشخصيات في مصر.

قلت: اِحكي هات ما عندك، أنا مش عايز منك حاجة، غير إني أفهم بقية الحكاية.

قال: ماذا تريد أن تعرف؟

قلت: إزاي عملت كده، وكيف نجوتَ منها طوال هذه السنوات؟!

قال بعصبية: أنا معملتش حاجة!

قلت: لا، عملت. نرفزني.

قال: كنت أعلم أن هذا اليوم سيأتي لا محالة.... ثم نظر لي، كنت أنظر له، وعرفت أن هذا الرجل سيحكي كل شيء، وقال: أنا أيضًا أريد أن أحكي... أنا كنت أعرف سارة لما دخلنا الجامعة بعد التوجيهية اللي هي ثانوية عامة دلوقتي، ودخلنا كلية الطب، تعرفت على سارة من أول عام، كان عندي سيارة والدي اشتراها عشان أذهب بها إلى الجامعة؛ ليريحني من المواصلات، أنا من الشين، جنبكم في الغربية، وسارة من قرية صغيرة اسمها حوين، تابعة للمركز بتاعكم، كنت معجبًا بها ومفتونًا بجمالها، لم أكن مستعدًّا للزواج في هذا الوقت، كانت علاقتنا كأصدقاءٍ جيّدةً، حتى مرة حاولت أن... أقبلها... لكنها رفضت ونهرتني، عرضت عليها المال لتعطيني ما أريد لكنها أصرت وقطعت علاقتها معي، حاولت أكلمها بعد ذلك تركتني، وقالت: إنك غير مؤدب. وأحرجتني أمام الطلبة، كنا في السنة الثانية، في نهايتها، وعندما دخلنا السنة الثالثة لم أكن أفكر في شيء غير أن أكسر شوكتها، كان لدي بنات كثيرة، كانوا

يصاحبوني لأجل الأموال، تعرفت على شابين من الشباب: الأول: اسمه إسماعيل في قسم التخدير، والتاني: فؤاد زميل، وكانوا يريدونها أيضًا، اتفقنا أن نخدرها ونفعل ما نريده بها؛ لنتذوق طعمها، لكن كيف؟! أعددنا خطة، جلبت لها هدية مع كتابٍ كان غالي الثمن عليها، واعتذرت لها حتى قبلت هديتي، كنا نتأخر أحيانًا بسبب ما كان يحدث في البلد؛ من تعطيل المواصلات.. إلخ، كنت أراقبها كل يوم، أعرض عليها أن تركب معي لأوصلها في طريقي لكنها كانت ترفض، وبدات أتركها لحريتها، لا أكرر المحاولات حتى لا تشك في شيء..

مرة كنا في الشتاء والجو شديد البرودة عرضت عليها أن أوصلها، ظللت أحاول حتى ركبت، أوصلتها، واليوم التالي، والتالي، حتى وثقت بي ثقةً تامةً، كان أصدقائي يعلمون بما يحدث بيننا، وفي يومٍ جهزنا عصيرًا، ووضعنا بداخله المخدر، وألقيناه في السيارة، ومثل كل يوم مريت عليها، ركبت معي قلت: سارة لو سمحتى ناوليني علبة عصير من التابلوه أمامك. فتحت التابلوه، كان يوجد عصير برتقال، وعلبة واحدة مانجا، كان المخدر في كل العلب إلا واحدة، قلت: مانجا لو سمحتى، قالت: حاضر. قلت لها: أصلي مش بشرب البرتقال، وعرضت عليها أن تأخذ واحدة لكنها رفضت، ومع إصراري إن دا مينفعش، أنا أشرب وهي لأ، أخذت واحدةً وفتحتها، وشربت منها، ظللت أراقبها، وضعت يدها على رأسها، وتقول بأن رأسها ثقيلة، أراحت رأسها بعد مقاومةٍ على

الزجاج الجانبي، ذهبتْ في سباتٍ عميقٍ، هززتها لأتأكد أنها نائمة، كانت كالأموات لا تحرك ساكنًا، أخذت أتفحص جسدها، ووضعت يدي على جسدها كله، تأكدت فعلًا أنها نائمة، كان أصدقائي الاثنين ينتظرون على الطريق السريع بعدما استقلوا القطار ونزلوا في مكان اتفقنا عليه سابقًا، وقفت وركبوا وكانوا فرحين جدًّا عندما رأوها نائمة والشيطان زيّنها لنا، كانت فاتنة الجمال، ونحن كان ينقصنا المكان فقط، وكنت أمر كل يوم من عند الترعة الكبيرة، أظن إنك تعرفها. هززت برأسي بنعم. كمّل.. كنت أعرف مكانًا في بلدتنا خاليًا من الناس تمامًا لكن سارة استيقظت، أو بدأت تفيق من المخدر في قطور بلدك، وكانت ستفضح أمرنا، أوقفنا السيارة على طريق الساقية؛ لأن الطريق كان ضيقًا، تركنا السيارة على حافة الطريق وحملنا سارة و..

قلت: وقتلتوها؟!

قال: لا، أنا لم أفعل بها شيئًا، أقسم لك على ذلك.

قلت: أقسملك أنا بأنك لو كذبت مرة أخرى سأضع رصاصة في جبينك؛ لأنني أعلم كل ما حدث أصلًا... ونظرت إليه في غيظٍ، أكملت: لقد رأيت كل شيء؛ لأخفف نرفزتي، لكي لا أقتله قمت وأنا أدور حولهم وأصفع الأصلع على رأسه.

قال: يعني إيه؟

قلت: يعني أنا عارف مين اللي قتلها، وكنتم لابسين إيه، وكل التفاصيل الباقية، وبما إنك كنت موجود وانت اللي مخطط؛ فكلكم كلاب زي

بعضكم، مع إني ظلمت الكلاب إني شبهتكم بيها؛ لأنها أشرف منكم، كفاية إنها وفية، لكن بغض النظر عن اللي عايز أعمله فيك... سؤال: لماذا قتلتموها؟!

قال: لم أكن أريد ذلك، فقاتلها هو شريكي الآخر، ثم غمغم وقطب حاجبيه، وقال: لكن إنت منين عرفت كل دا. نظرت له في ثقة، وقلت: سارة هي التي أخبرتني.

قال: كيف وهي ميتة؟!!

قلت: بالضبط كده.. كمل وبعدين بعدما قتلتوها..

قال: قتلها إسماعيل؛ لأنها كانت ستفضحنا... لأنها تعرفنا كلنا، كانت تعرفنا، انتابنا الذهول، لم نعد قادرين على التفكير.

قال فؤاد: سندفنها هنا، ولا من شاف، ولا من دري، ابحثوا عن أي شيء نحفر به..

بحثنا وجدنا فأسًا بجوار الأرض في العشة، حفرنا ودفناها ونحن نحفر جاء شاب و... ودفناها ومشينا.

قلت وأنا أقترب منه في تؤدة: مَن هذا الشاب؟!

قال: لا شيء دي زلة لسان، يبدو أنني نسيت ما حدث.

ضربته بقبضتي في وجهه؛ لأنني علمت أنه كان يكذب، كان سيقول شيئًا، خرج منه دون أن يدري، ولكنه تراجع عنه، قلت له: لا أحب الكذب.

قال: سأقول كل شيءٍ، جاء الشاب لا نعرفه، ولا ندري من أين جاء؟ ورآنا، قال: ماذا تفعلون؟! بصوت عالٍ، كان مُلطخًا بالطينأ يبدو أنه كان يسقي أرضه وكان قادمًا إلينا، وقبل أن يأتي إلينا ذهب إليه إسماعيل وفؤاد، كان يبدو عليه القوة تسللت أنا من خلفه، وضربته على رأسه بالفأس، وأكملنا دفن سارة، ساوينا الأرض، وأخرجنا الشاب على الطريق الرئيسي وتركناه، وركبنا السيارة وهربنا، بعد ذلك ذهب كلٌّ منا إلى بيته، وذهبنا إلى الجامعة في اليوم التالي؛ لكي لا نثير شكوكَ أحد، ولكن كان بعض الأشخاص من زملائنا قد رأوها وهي تركب معي السيارة، فتحولت إلى التحقيق، ولكن لم يثبت عليَّ شيءٌ، وبعد أسبوعٍ أو أسبوعين قبض علينا نحن الثلاثة، وحُقّق معنا؛ لأننا كنّا آخر أشخاص معها، التحقيقات أثبتت ذلك، ولكن ما الدليل؟ لا يوجد!! فتركونا بضمان محل إقامتنا، وخرجنا لكن حياتنا انقلبت كابوسًا مُزعجًا، كانت تأتي في أحلامنا، تنادي عليّا لمدة أسبوع حتى جاء خبر موت صديقنا إسماعيل في البانيو وعلى وجهه علامات رعب كأنه رأى شيئًا أرعبه، كنا نموت من الرعب كل دقيقة، وبعد يومين جاء خبر غرق فؤاد هو الآخر في البانيو وعليه نفس الأعراض، علمت أنها تنتقم منا، ذهبت إلى أحد السحرة، كانت أعصابي مدمرةً، لكنه ساعدني، صنع لي تميمةً تنقذني منها، وأخبرني بأن عليَّ أن أترك البلد، لن تعلم بعد هذه

التميمة أين أنا؟!! جلست عنده شهرًا كاملًا لم يحدث شيءٌ حتى هذه اللحظة..

ذهل عقلي لم أكن أصدق ما أسمع، وبدأت أرتب الأحداث بعضها فوق بعضها، ثم قلت: شاب ضربتوه على رأسه؟!

قال: والله كنا مضطرين.

قلت: هل كنتم تعرفونه؟

قال: لا، لكنه من أهل البلد هناك....

أخذت الأفكار تدور في رأسي، وتذكرت أبي وحزنه، وحكاياته عن أخيه، عمي الأكبر أحمد، لم أتمالك نفسي، انهلت عليه ضربًا.

قلت له: عمي أحمد...

وجلست على الكرسي، وأنا أنظر إليه باندهاشٍ وغضبٍ، قلت: هل تعرف الشاب الذي قتلتموه في هذا اليوم؛ إنه عمي أحمد.

قمت بسرعة، ووضعت المسدس على رأسه، وكدت أقتله لكني رجل علم لست قاتلًا.. تأخر ماهر، فأخرجت المسجل من جيبي الذي أعطاني إياه أسامة؛ لكي نثبت أنه القاتل عن طريق اعترافاته في التسجيل.

قال: ما هذا؟!

قلت له: هذا مسجل، لقد سجلت لك اعترافك كاملًا، الآن ستحاسب بالقانون، الشرطة في طريقها إلى هنا، أخذ يسبني بأوسخ الألفاظ التي تدل على سوء أخلاق هذا الرجل، أوقفت المسجل وجلست.

قلت: أنا لم أر عمي، ولكني رأيت حزن أبي عليه، لم يتوقف عن البحث عن قاتله، ولكن القضية حفظت وتُوفّيت زوجته حزنًا عليه وتوفي والداها حزنا على ابنتهم إذا كانت بنتهم الوحيدة؛ هل عرفت ماذا فعلتم؟! لقد دمرتم بيوتًا كثيرةً.. الإعدام هو أقل شيءٍ تستحقه..

ضحك، ظل يضحك كثيرًا، اقتربت منه في تؤدة وأنا أنظر في عينيه بغضبٍ شديدٍ..

قلت: هل أنت سعيد إلى هذا الحد؟!

قال: أجل لأنك تعتقد أنني سأعدم، أنت لا تعرفني جيّدًا.... وتحول من حالة الضعف والمسكنة إلى الكبر والغرور وهو يقول: أنا لن أعدم كما تتخيل أنت.. سأخرج منها.. ولكن عليك ألا تكون موجودًا في هذه الدنيا قبل أن أمسك بك؛ لأنني عندما سأخرج سيكون قتلك على يدي ليس هذا فحسب بل أنت وعائلتك بأكملها وخطيبتك رقية، أعدك، سأفعل بها ما فعلته بسارة، ولكني لن أقتلها سأهتم بها.

وظل يضحك في هيستريا.. كانت الأفكار تدور في عقلي بسرعةٍ.. تخيلت كل ما قاله.... فهذا الرجل يملك النفوذ والسلطة والمال؛ فهو قادر أن يخرج منها، وأقصى عقوبة ممكن أن يحكم بها هو السجن، سيسجن لكنه لن يعدم، إن خرج هذا الرجل من هنا سأخسر كثيرًا.. صوت ضحكته مستفزة، الآن سمعي يتأذى من صوتِ ضحكته.. لقد تعلمت من التدريبات أن الهجوم خيرُ وسيلةٍ للدفاع.. ضحكته مستفزة.. الآن

لم يترك لي إلا خيارًا واحدًا.. سحبت الكرسي وجلست أمامه قلت: تضحك، هل أنت سعيد إلى هذا الحد؟! ظل يضحك.. مددت يدي فأمسكت مفكًّا كان على رفٍّ به أسلاك كهربائية وبضربةٍ سريعةٍ دخل في خده الأيسر فخرج من خده الأيمن.. سالت الدماء من شدقيه وهو يزوم ويتأوه... قلت له: أين ضحكتك الآن.. وأخرجته وبضربةٍ سريعةٍ أخرى غرزته في رقبته، ثم حللت قيوده، ومسكت المسدس، كان الحراس يدبدبون بأقدامهم، تذكرت بأن الحبل عليه بصمات أسعد حين قيّدهم، أطلقت على رأس الأصلع طلقةً في الرأس، وأرديت الرجل الآخر قتيلًا برصاصة في رأسه أيضًا، وتأكدت أنهم أموات، ثم ضربت نفسي رصاصة في كتفي، وأخرجت منديلًا ومسحت بصماتي، وجعلت المسدس في يد أسعد، وجلست أنتظر ماهر وأسامة، كنت قد فقدت كميةً من الدماء، ولكن الرصاصة ليست في مكان قاتل، وبعد عشر دقائق تقريبًا أتى ماهر وأسامة وبعض رجال الشرطة، حطموا الباب، ودخلوا؛ ذهلوا من المنظر، وجاء الطب الشرعي والجهات اللازمة المختصة لمعاينة مكان الحادث، وحكيت لهم التفاصيل: أن أسعد اختطفني، وقيّدني في الكرسي، ثم فككت قيدي لكي أستطيع أن أحصل على اعترافه، لكنه هجم عليَّ؛ لأنني لم أكن أقيّده؛ لأجل عمره، وهجم عليَّ وضربني، ثم أطلق طلقة جاءت في كتفي، وقال لي: سأقتلك شر قتلة، ولن يعرف أحدٌ شيئًا، أنتم

الثلاثة فقط مَنْ تعلمون؟ الآن.. ثم ضرب الاثنين الآخرين بالرصاص، حينها هجمت عليه، وضربته بالمفك، لم أشعر بنفسي..

قال أسامة بسخريةٍ: عايزها تمشي دفاع عن النفس يعني؟!

لم أرد.. قال ماهر: مش أحسن ما كان مات هو، الراجل دافع عن نفسه.

قلت: أنا عايز أمشي.

قال أسامة: تمشي فين يا مولانا، هتفضل هنا لغاية ما التحقيق يخلص، وبعد كده هتمشي.

قلت لماهر: لا تقل لأمي شيئًا حتى أعود، ظللت مدة ثلاثة أيام في المديرية للتحقيق، وانقلبت الدنيا بالصحافة، وكان بسيوني الموكل للدفاع عني بعد ما حكيت له ما حدث، أخرجني "براءة.. دفاع عن النفس".

ذهبت للبلد كانت أمي قد علمت.. ورقية.. كلهم كانوا في انتظاري، وبعدما طمأنتهم، واطمأننت عليهم دخلت لأنام، دارت الأحداث كلها أمام عيني حتى تُهت في سباتٍ عميقٍ، لكني حلمت.. رأيت سارة كانت تقف وسط الحقول مرتديةً فستانًا أبيض، كانت تشاور لي مُودعةً بضحكتها الجميلة، وتمشي، الصورة تتحرك ببطءٍ وشعرها يتطاير، ثم اختفت في وسط الحقول.. هنا فتحت عيني مُبتسمًا، شعرت بإحساسٍ جميلٍ، الرضا يغمرني، ومن يومها حتى الآن ستظل حكاياتها تُقال، عن الفتاة الجميلة التي تُنادي الرجال ليلًا؛ لكي يتبعوها في الحقول، لكني لا

أظن أنها قتلت أحدًا آخر، إنها تنادي فحسب؛ لتبث الرعب في قلب مَنْ تُسوّل له نفسه بالدخول للحقول ليلًا لفعل أي شيءٍ من الأعمال الدنيئة، لكنها ليست قاتلةً على أيّة حال، وستظل أسطورةً على مرّ الزمان، حكاية يتناقلها الناس بعضهم لبعض، وانتهت قصتي مع "النداهة".

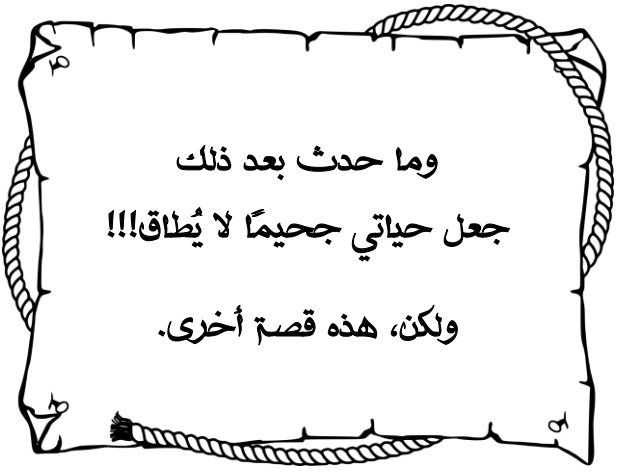
وما حدث بعد ذلك
جعل حياتي جحيمًا لا يُطاق!!!
ولكن، هذه قصة أخرى.

النداهة

إن الحقول الريفية تمتاز بهوائها النقي وأجوائها الرائعه، لكن انتبه، عندما يسدل غطاء الليل على الحقول؛ فإنها تكون مرعبة حقًا، عندما تسمع همساتها المرعبة كل ما عليك فعله أن تركض، وكأن الشيطان يطاردك، لأنه شيطان خطير بالفعل؛ إنها النداهة.

أحمد محمد متولي الحفناوي
مركز قطور محافظة الغربية
مواليد ١٩٨٨

النداهة

الكاتب / احمد الحفناوى